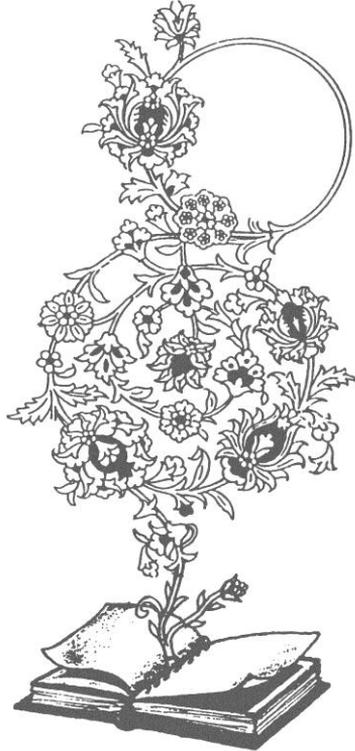


بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مجموعة مقالات المؤتمر العالمي

"حول آراء علماء الإسلام في التيارات المتطرفة والتكفيرية"

قم/ ٢٠١٤م



المجلد السادس

سرشناسه: کنگره جهانی جریان‌های افراطی و تکفیری از دیدگاه علمای اسلام (نخستین: ۱۳۹۳: قم)
عنوان قراردادی: مجموعه مقالات کنگره جهانی جریان‌های افراطی و تکفیری از دیدگاه علمای اسلام. عربی
عنوان و بدید آور: مجموعه مقالات المؤتمر العالمي «حول آراء علماء الإسلام في التيارات المتطرفة والتكفيرية»/
على نفقة: المؤتمر العالمي «حول آراء علماء الإسلام في التيارات المتطرفة والتكفيرية» باهتمام الدكتور مهدي
فرمانیان؛ مسؤول الترجمة على كنجيان خناری
مشخصات نشر: قم: دارالاعلام لمدرسة اهل البيت (ع). ۱۳ -
مشخصات ظاهري: ج.
شابک (ج.ع): 978-600-7667-12-5 (V.6)
شابک (دوره): 978-600-94805-3-1 (V.SET)

وضعت فهرست‌نویسی: فیبا

یادداشت: عربی

یادداشت: فهرست‌نویسی بر اساس جلد ششم: ۱۳۹۳

یادداشت: کتاب‌نامه

موضوع: سلفیه - عقاید - مقاله‌ها و خطابه‌ها

موضوع: وهابیه - عقاید - مقاله‌ها و خطابه‌ها

موضوع: تکفیر - مقاله‌ها و خطابه‌ها

موضوع: مجتهدان و علما - نظریه درباره سلفیه - مقاله‌ها و خطابه‌ها

موضوع: مجتهدان و علما - نظریه درباره وهابیه - مقاله‌ها و خطابه‌ها

موضوع: مجتهدان و علما - نظریه درباره تکفیر - مقاله‌ها و خطابه‌ها

شناسه افزوده: فرمانیان، مهدي، ۱۳۵۲، . گردآورنده

شناسه افزوده: كنجيان خناری، علی، ۱۳۴۷، . مترجم

رده‌بندی کنگره: ۱۳۹۳ ۴۳-۳/۲۲۵ BP

رده بندی دیوئی: ۲۹۷/۴۶۴۳

شماره کتابشناسی: ۹۳۲۹۷۴۶۴۳

المؤتمر العالمي «آراء علماء الإسلام في التيارات المتطرفة والتكفيرية»



کنگره جهانی
جریان‌های افراطی و تکفیری
از دیدگاه علمای اسلام
المؤتمرات العالمية
آراء علماء الإسلام في
التيارات المتطرفة والتكفيرية
The World Congress on
Extremist and Takfiri
Movements in the Islamic Scholars' View

قم، شارع الشهداء، ناصية زقاق ۲۲، رقم البناية ۶۱۸

هاتف: ۰۲۵-۳۷۸۴۲۱۴۱

البريد الإلكتروني: info@makhateraltakfir.com

الموقع الإلكتروني: www.makhateraltakfir.com

مجموعة مقالات المؤتمر العالمي "حول آراء علماء الإسلام في التيارات المتطرفة والتكفيرية"

المجلد السادس

بطلب من: المؤتمر العالمي «حول آراء علماء الإسلام في التيارات المتطرفة والتكفيرية»

باهتمام: الدكتور مهدي فرمانیان

الناشر: دار الإعلام لمدرسة اهل البيت (ع)

مسؤول الترجمة: حسين صافي

الإخراج الفني: علي نصير محمدي

تصميم الغلاف: محمد مهدي اسعدي

المشرف على الطباعة: سيد محمد موسوي

الطبعة: الأولى، ۱۴۳۵هـ

الكمية: ۵۰۰ نسخة

طبع و تجليد: كمال الملك

السعر: ۲۵.۰۰۰ ريال



دار الاعلام
لمدرسة اهل البيت (ع)
استشارات دارالاعلام
لمدرسة اهل البيت (ع)

قم، شارع الشهيد فاطمي، زقاق ۲، الفرع الأول، رقم البناية ۳۱

هاتف: ۰۲۵-۳۷۷۴۰۷۲۹

البريد الإلكتروني: info@darolelam.ir

عنوان الموقع: darolelam.ir

جميع الحقوق محفوظة للمؤتمر

أعضاء الهيئة المنظمة للمؤتمر العالمي

«حول آراء علماء الإسلام في التيارات المتطرفة والتكفيرية»

رئيس المؤتمر: سماحة المرجع الديني الشيخ ناصر مكارم الشيرازي (دام ظله)
المشرف العلمي للمؤتمر: سماحة المرجع الديني الشيخ جعفر السبحاني (دام ظله)
رئيس الهيئة المنظمة للمؤتمر ومعاون المشرف العلمي: الدكتور مهدي علي زاده موسوي
رئيس اللجنة العلمية للمؤتمر: الدكتور مهدي فرمانيان
المسؤول التنفيذي في اللجنة العلمية: محمد علي موحدوي پور
مسؤول مقالات أهل السنة في البلاد: محمد رضا خوشخو
مسؤول مكتب اللجنة العلمية: محمد مهدي عمادي
مسؤول تنسيق المقالات: عباس صادقي خواه
مسؤول الترجمة: علي كنجيان خناري
فريق المترجمين: د. سيد ابراهيم آرمن، د. عبدالله آل بو غبيش، د. اويس محمدي، رحيم حمداوي،
شادي ادريس، حسين حسين پور، مينا عربي، زينب اكبري

لجنة نسائية التيارات المتطرفة و التكفيرية

مدير اللجنة: الدكتور مهدي فرمانيان
سكرتير اللجنة: محمد حسن بهشتي
أعضاء الهيئة العلمية في اللجنة:

اسد علي زاده
الدكتور الله اكبري
مهدي بيشوايي
الدكتور جباري
جبرئيلي
الدكتور لطف الله جلالتي
الدكتور داداش نجاد
الاستاذ علي اصغر رضواني
محمد طاهر رفيعي
الاستاذ قاسم صفري (جوادي)



حميدرضا مطهري

الدكتور ملك مكان

نكزاد

محمدهادي يوسف غروي

لجنة سبر عقائد التيارات التكفيرية

مدير اللجنة: آية الله حسيني قزويني

سكرتير اللجنة: حبيب عباسي

أعضاء الهيئة العلمية في اللجنة:

محمد جواد ابوالقاسمي

الاستاذ رضا البطاط

فلاح الدوخي

حسين رجيبي

اكبر روستائي

آية الله نجم الدين طبسي

محمدجعفر طبسي

محمد يزداني

اللجنة التيارات المتطرفة والتكفيرية والسياسة

مدير اللجنة: الدكتور منصور ميراحمدي

سكرتير اللجنة: مختار شيخ حسيني

أعضاء الهيئة العلمية في اللجنة:

الدكتور شهروز ابراهيمي

الدكتور محمد پزشكي

الدكتور حسين بوراحمدي

الدكتور مسعود بورفرد

الدكتور محمد علي حسيني زاده

الدكتور صادق حقيقت

الدكتور رضا خراساني

الدكتور محمد ستوده

الدكتور كاظم سيد باقري

الدكتور محمود شفيعي

الدكتور عبدالوهاب فراتي



الدكتور ناصر قربان نيا
 الدكتورة نجمه كيخا
 الدكتور شريف لك زايي
 الدكتور عنايت الله يزداني
 الدكتور يزداني مقدم

لجنة سبل الخلاص والتصدي للتيارات التكفيرية

مدير اللجنة: الدكتور حسن بيكي
 سكرتير اللجنة: الدكتور جواد اميني
 أعضاء الهيئة العلمية في اللجنة:
 الدكتور اكبر استركي
 الدكتور سيامك باقري
 الدكتور هادي جمشيديان
 الدكتور حميد رضا حاتمي
 الدكتور علي رضا خراشادي زاده
 محمد رضا خسروي
 الدكتور محمود رضا شمس دولت آبادي
 محمد حسن دهقان
 حميد رحمتي
 بهرام رضايي
 محمود زرین ماه
 عباس عظيمي كيا
 مجيد فقيه
 الدكتور ضياء الدين قاضي زاده
 علي رضا كيقبادي
 علي محمد رضايي
 احمد مزيناني
 مهدي مزيناني
 الدكتور عبدالله هنداني

مسؤول القسم الدولي: محمود وزير
 نائب مسؤول الشؤون الدولية: محمد رضا خوشخو
 مسؤول مكتب الشؤون الدولية: مرتضى احمدي



- مسؤول القسم التنفيذي: محمد علي موسوي نسب
مسؤول الأمانة المركزية: جمال الدين طباطبائي
مسؤول مكتب الأمانة العامة: محمد باقر باقريان مؤحد
مسؤول مراسلات الأمانة المركزية: محمد مهدي فضلي
مسؤول الشؤون المالية: ابوالفضل سعادت
مسؤول الموقع: سيد مصطفى طباطبائي شيرازي
مسؤول التقنية: مجتبی تمیمی
مسؤول لجنة الضيوف المحليين: علي اصغر ضيايي
مسؤول اللجنة الثقافية - الدعائية: علي مولائي
مسؤول لجنة وسائل الإعلام: ابوالفضل صالح
مسؤول لجنة الإسكان: سيد رضا حسيني

التوحيد والشرك

دراسة مقارنة بين رؤية المدارس الإسلامية ورؤية المذهب التكفيري

فلاح الدوخي*

نبذة:

مسألة التوحيد، تعدُّ من المسائل العقدية المهمة التي تصنّف الإنسان إلى مسلم موحد وكافر مشرك، وما يترتب على هذا التصنيف من آثار عملية تلعب دوراً كبيراً في الحياة الاجتماعية، ولهذا كان تعاطي العلماء والمفكرين الإسلاميين بهذه المسألة بكثير من الاهتمام والدقة البالغة؛ حذراً منهم من الوقوع في خطأ الفهم المفضي إلى آثار وخيمة على الفرد والمجتمع.

ولم يكن ثمة اختلاف جوهري بين شتى المذاهب الإسلامية المعروفة في تفسيرهم للتوحيد المتمثل في كون الله تعالى واحداً منفرداً في ذاته وصفاته، وفي جوانب أخرى لهذه الوحدة، وكذلك ثمة اتفاق بينهم في ضرورة سد كل أبواب عدم التوحيد المعبر عنه بالشرك، المساوق للاعتقاد بوجود ند وضد مع الله تعالى.

نعم جنحت فئة من المسلمين - تحت تأثير آراء بعض العلماء - فتطرفت وشطحت في تفسيرها للتوحيد والشرك بما يخالف تفسير سائر علماء المذاهب الإسلامية؛ وبات فهم التوحيد في نظرهم حكراً عليهم؛ فزعموا أن تفسيرهم الشاذ وفهمهم له هو الموافق حصراً للكتاب والسنة والنبوية، وقد قاد ذلك إلى تكفير من خالفهم الرؤية في تفسيرهم هذا.

وبما أن موضوع المقال هنا هو دراسة مقارنة بين المدارس الإسلامية، سواء السنية أم الشيعية، وبين الخط التكفيري في تفسيره لعقيدة التوحيد والشرك، كان من اللازم بيان رأي المذهب الشيعي أولاً مقروناً بالمذاهب العقدية السنية الثلاثة المعروفة والمشهورة: المعتزلة والأشاعرة والماتريدية، ثم التعرض لآراء المدرسة

*. الحوزوي بالمستوى الرابع و الدكتوراه في فرع الفقه الاسلامي



السلفية التي يتزعمها ابن تيمية، ومن ثم المدرسة الوهابية بزعامة بن الوهاب التي قلدت ابن تيمية ولم تخرج عن إطار أفكاره خصوصاً فيما يتعلق بالتوحيد والشرك، بل أفرطت كثيراً وجنحت نحو التكفير وتوسعت فيه بشكل كبير، حتى أصبحت سمة التكفير من خصائصها، ولهذا ركزنا البحث على هذه المدرسة وبيان منطلقاتها الفكرية الجوهرية في فهمها للتوحيد والشرك، وبماذا تميزت عن سائر المدارس الإسلامية، ووجدنا أن ثمة فارقاً نوعياً بين مباني ورؤى هذه المدرسة التكفيرية وسائر المذاهب الأخرى، وأن هذا الخط التكفيرى، الذي يرجع في جذوره الأولى لأفكار أحمد بن حنبل، كان أسيراً لجملة من العوامل التي ساهمت في بناء منظومته الفكرية الحديثة التي شيدها ابن تيمية وأتباعه، وكان من أهم تلك العوامل الفهم السطحي الخاطئ والجمود الفكرى والتقليد والتعصب ونحو ذلك.

وقد بينا أهم المنطلقات التي أدت إلى هذا الفارق وهذا الاختلاف الجوهرى - في عقيدة التوحيد - بينها وبين سائر المذاهب، وذكرنا أن أول منشأ كان متمثلاً في تقسيم ابن تيمية التوحيد إلى توحيد ربوبية وتوحيد ألوهية، وما فرعه على هذا التقسيم من زعمه أن الكفار زمن الوحي لم يكونوا منكرين لتوحيد الربوبية، بل كانوا مقرين معترفين به، وما كان ينكرونه هو خصوص توحيد الإلوهية الذي يعنى توحيد العبودية وعدم الشرك في العبادة. ثم فرع على هذا زعماً آخر: أن الأنبياء لم يكن من مهامهم تبليغ توحيد الربوبية الذي يعد توحيداً فطرياً، بل تركزت بعثتهم على توحيد العبادة.

وقد بينا الخلل الذي مارسه الفكر التكفيرى في هذا التقسيم وبطلان استدلالهم. وكذلك تعرضنا لذكر المنشأ الثانى المترتب على الأول، والذي أفضى إلى الجنوح نحو الإفراط في التكفير واتهام المسلمين بالشرك، وهو التفسير الخاطئ لمعنى العبادة، حيث اعتمدوا في تفسيرها على المعنى اللغوى الذي يقتصر على كونها خضوعاً وتذلاً.

وقد بينا أن هذا التعريف لا يساعده العرف، وهو منقوض بكثير من الموارد التي تدخل فيه، لكن لا تعد عبادة عرفاً، ولهذا كنا مضطرين أن نبرز تعريفاً صحيحاً تمثل في أن العبادة هي الخضوع مقترناً بالاعتقاد ربوبية وإلوهية ما يراد عبادته، ومن دون استباق هذه الاعتقاد في قلب العابد سوف لن تكون عبادة، حتى لو كان الفعل سجوداً وركوعاً ونحوه، ولهذا لم يكن السجود لآدم عبادة بوجه ما.

ومن ثمّ فما ذكره أصحاب الفكر التكفيري من تطبيقات لعبادة غير الله من قبيل زيارة القبور والتوسل بالأئمة والصالحين ونحو ذلك - والتي على ضوءها اتهم شريحة كبيرة من المسلمين بالشرك والوثنية والكفر - جميع ذلك إنما كان نتيجة الفهم الخاطئ لمعنى العبادة التي يرومون توحيدها؛ فإنه من الواضح لكل شخص متحرر من النزعة التكفيرية ومن أخطاء فهمهم سيرى أن تلك التطبيقات لا تمت للشرك بصلة، بل هي في حقيقتها تقع في صميم عبادة الله والتقرب إليه.

أقوال في التكفير

يقول الغزالي: "لا يسارع إلى التكفير الا الجهلة... وينبغي الاحتراز من التكفير ما وجد الإنسان إلى ذلك سبيلاً، فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة المصرّحين بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله خطأ، والخطأ في ترك ألف كافر أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم... والوصية أن تكف لسانك عن أهل القبلة ما أمكنك؛ ما داموا قائلين لا إله إلا الله محمد رسول الله؛ فإن التكفير فيه خطر والسكوت لا خطر فيه".^١

ويقول محمد عبده: "إن الله لم يجعل للخليفة ولا للقاضي ولا للمفتي ولا لشيخ الإسلام أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام... ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعي السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه أو ينازعه طريق نظره، فليس في الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة، والدعوة إلى الخير والتنفير عن الشر... وهي سلطة خولها الله لأدنى المسلمين، يقرّع بها أنف اعلاهم، كما خولها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم.

وليس لمسلم، مهما علا كعبه في الإسلام، على آخر، مهما انحطت به منزلته به، إلا حق النصيحة والإرشاد. ولقد اشتهر بين المسلمين، وعُرف من قواعد أحكام دينهم، أنه إذا صدر قولٌ من قائلٍ يحتمل الكفرَ من مائة وجه، ويحتمل الإيمان من وجه واحد، حُمِلَ على الإيمان، ولا يجوز حملة على الكفر".^٢

١. الغزالي، أبو حامد، الاقتصاد في الاعتقاد: ص ١٤٣. وانظر: الغزالي، أبو حامد، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة: ص ٦١.

٢. محمد عبده، الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده: ج ٣ ص ٢٨٣-٢٨٩.



بمثل هذه الأقوال يقرر الفكر الإسلامي الأصيل طبيعة التكفير وحجم خطره الكبير على الإنسان وعلى الأمة الإسلامية، فلا ينبغي لمسلم أن يجازف في تكفير الآخرين من القائلين بالشهادتين تحت ذريعة تأويل خاطئ أو فهم قاصر لبعض منطلقات العقيدة الإسلامية.

مقدمة

أساس كل الدعوات الإلهية في طول تاريخ الأنبياء هو التوحيد ونفي الشرك، فليس ثمة شك في أن التوحيد هو الأصل الوحيد الذي انطلق منه الرسل لجميع الديانات على سعتها من الاعتقادات والأحكام والأخلاق، والإسلام واحد من هذه الديانات التي لم تشذ عن ذلك المبدأ، لكن الملفت في الديانة الإسلامية هو التشديد على هذا المبدأ والاهتمام به كثيراً بنحو فاق كل الديانات الأخرى، فكانت حقيقة الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، ونفي أي شريك يحول دون حقيقة هذه الشهادة، ووصل مستوى الاهتمام به إلى حدّ قد جعل التلفظ والنطق بالشهادة كافياً في ترتب آثار الإسلام الظاهرية، ومعه يمنح الناطق بها حصانة في أعلى مستوياتها، فلا يجوز قتله ويمتنع معها انتهاك عرضه ويجب احترام جميع ماله، ويترك حقيقة إيمانه باطنياً، لمن هو مطلع على السرائر، فلو كان واقعاً غير مؤمن بذلك، بل كان تلفظه لأهداف ومصالح دنيوية كفى ذلك في دخوله في الإسلام، ويقرر النبي^١ هذه الحقيقة بقوله - كما في صحيح البخاري - "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها".^٢

وفي الكافي عن أبي عبد الله^٣: "الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله... به حققت الدماء وعليه جرت المناكح والمواريث، وعلى ظاهره جماعة الناس".^٤

وكان التوحيد بهذا التلفظ له معطى يتمثل في حق الحياة في جميع صورها ومجالاتها، ولهذا حينما نريد أن نفهم التوحيد لا بد أن نفهمه في ضمن هذا الإطار الذي يعبر عنه

١. البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري: ج ٨ ص ١٦٢.

٢. الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢ ص ٢٥.

بالمقصد العام، وحين نطلب تفسيراً للتوحيد لا بد أن يكون في هذا الفضاء من الفهم العام، وهذا التفسير المقاصدي يعضده كثير من الآيات القرآنية، كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، هذه الآية التي جعلت غايةً وعلّةً كل الأوامر الإلهية هو إحياء الناس بها، وكأنّ عدمها موت حقيقة، وكأنّ فلسفة استجابة الناس للتوحيد والإقرار به إنما هو الإحياء؛ مهما فسرنا الحياة، سواء الحياة الدنيا أم الأخرى، ومهما فسرنا أثر الاستجابة في تحقق الحياة هل هو بسبب العلم والمعرفة الحاصل منها أم غيره.

ولسنا هنا في هذا المقال نريد أن نبحث بإسهاب عن تفسير التوحيد وما يتعلق به بقدر تسليط الضوء على عناصر فهمه الأساسية عند مشهور علماء الإسلام، سواء من أهل السنة أم الشيعة؛ مقارنةً بالفهم السلفي المعاصر، وبيان الخلل الذي وقع فيه الأخير وكيف أثر ذلك في تكفير شريحة كبيرة ممن يقر بحقيقة التوحيد وينطق به.

في الحقيقة يهدف البحث إلى مقارنة الواقع الإسلامي المعاصر وكيف أضحى جوهر الإسلام (التوحيد) عند بعض مبرراً ومنطقاً لعكس المقصد العام والعلّة التي جاء من أجلها المتمثلة في الإحياء - كما قلنا - فأفضى قصور الفهم هذا في تفسير التوحيد إلى الحكم بموت الكثير من المسلمين وانتهاك حرمتهم وأعراضهم وأموالهم.

نظرة عامة للتوحيد ونفي الشرك

التوحيد والشرك معنيان متقابلان لا يجتمعان في محل واحد، ولهذا لا يدخل الإنسان في الإسلام إلا بالإقرار بالتوحيد وأنه لا إله إلا الله، ولا يخرج عن الإسلام إلا بضده، وهو الشرك والكفر، ولا يستحق الجنة إلا به، ولا يستحق النار إلا بضده. فلا يمكن اجتماع التوحيد مع الشرك، فالأول لازمه نفي الشرك، والثاني - أي الشرك - لازمه نفي التوحيد، وهذا يعني تهافتاً في نظر المعتقد، وهو محال

نعم ثمة إشارة قرآنية إلى إمكان اجتماعهما، بل وقوع ذلك عند أكثر المسلمين، في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾^١ وسوف نذكر لاحقاً تبريراً منطقياً لاجتماعهما معاً.

تعريف التوحيد والشرك

التوحيد لغة

التوحيد: مصدر من وَحَدَ، والوحدة: الانفراد، يقال: رأيتُه وحده: أي منفرداً، كأنك قلت أوحده برؤيتي إيحاداً، أي: لم أر غيره... والتوحيد: الإيمان بالله وحده لا شريك له. والله الواحد الأحد: ذو الوجدانية والتوحد... والواحد المنفرد بالذات في عدم المثل والنظير، "وَوَحْدَهُ تَوْحِيدًا: جَعَلَهُ وَاحِدًا"^٢.

وتوحيد الله تعالى في جملة (لا إله الا هو)، يقتضي نفي ماهية أي إله حقيقي، وإذا انتفت انتفى معها جميع أفرادها، وبهذا يفيد هذا القول التوحيد التام المحقق^٣.

الشرك لغة

الشرك: جمعه أشراك وهو بمعنى النصيب، كما في الحديث: من أعتق شركاً له في عبد، أي: حصة ونصيباً^٤. والشرك والشركة: أن يكون الشيء بين اثنين لا ينفرد به أحدهما، يقال: شاركت فلاناً في الشيء إذا صرت شريكه، وأشركت فلاناً إذا جعلته شريكاً لك^٥. والشرك: خلط الملكين^٦.

فالشرك في الله - بحسب الأصل اللغوي - يكون باتخاذ الند معه، فمعنى أشرك بالله تعالى أنه قد خلط وضم له شيئاً آخر، وهذا الشيء قد يكون صنماً أو ملكاً ونحو ذلك، والخلط قد يكون بلحاظ الربوبية والتدبير وقد يكون بلحاظ الإلوهية والعبودية.

١. يوسف: ١٠٦.

٢. انظر: الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح، ج ٢ ص ٥٤٧، وانظر: ابن منظور، جمال الدين بن مكرم، لسان العرب: ج ٣ ص ٤٥٠، وانظر: الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط: ج ١ ص ٤١٤.

٣. الرازي، محمد بن عمر، تفسير الرازي: ج ٤ ص ١٩٦.

٤. الفيومي، محمد بن علي، المصباح المنير: ج ٤ ص ٤٩٩.

٥. ابن فارس، أحمد، مقاييس اللغة: ج ٣ ص ٢٠٦.

٦. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات غريب القرآن: ص ٢٥٩.

وسوف نسلط الضوء على المعنى الاصطلاحي عند العلماء للشرك لاحقاً؛ كونه يمثل النقطة المهمة في تفسير التوحيد، والمثيرة للجدل، فيما يتعلق بالفكر التكفيري المعاصر.

أقسام الشرك وأحكامه

يمكن تقسيم الشرك - بحسب ما ورد في القرآن والسنة - إلى قسمين: شرك عظيم، وشرك صغير:

الشرك العظيم

الأول: الشرك العظيم: وهو إثبات شريك لله تعالى في ذاته أو أفعاله أو صفاته، وذلك أعظم كفر، قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ»^١ وقال: «وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا»^٢، وقال: «مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ»^٣.

الشرك الصغير

الثاني: الشرك الصغير، وهو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور، وهو الرياء والنفاق، المشار إليه بقوله: «جَعَلْنَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ»^٤، وقوله: «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ»^٥.

وقد عرفه البعض: "كل ما نهى عنه الشرع مما هو ذريعة إلى الشرك الأكبر ووسيلة للوقوع فيه وجاء في النصوص تسميته شركاً"^٦.

وحكم القسم الأول أنه يُخرج من الملة، ولا حصانة لدم مرتكبه ولا لماله، وفي الآخرة يدخل النار. ويعتبر من أكبر الكبائر الموبقة، وفي صحيح البخاري: "سألت النبي ﷺ، أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: إن تجعل لله نداً وهو خلقك"^٧. والند يعني الضد والشبيه^٨.

١. النساء: ٤٨.

٢. النساء: ١١٦.

٣. المائدة: ٧٢.

٤. الأعراف: ١٩٠.

٥. انظر: الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات غريب القرآن: ص ٢٦٠.

٦. المتعق، عواد بن عبد الله، بعض أنواع الشرك الأصغر، مجلة البحوث الإسلامية: ج ٢٠ ص ١٥١.

٧. البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري: ج ٥ ص ١٤٨.

٨. انظر: ابن منظور، جمال الدين بن مكرم، لسان العرب: ج ٣ ص ٢٦٤.

ومن هنا من اتخذ صنماً أو غيره؛ معتقداً أنه نظير لله تعالى وضداً له فقد كفر وأشرك وفعل حراماً عظيماً. وسوف نشير لاحقاً إلى هذا القسم وأنه هو المنحصر في التكفير والإشراك.

أما حكم الثاني، فهو محرم، ولا يخرج من ارتكبه من ملة الإسلام، ولذا ورد التحذير منه في الكتاب والسنة^١.

شرك الطاعة وشرك العبادة

وجاء في لسان بعض الروايات تقسيم آخر للشرك إلى شرك الطاعة وشرك العبادة، عن الصادق عليه السلام في تفسير الآية: وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون، قال: "شرك طاعة وليس شرك عبادة"^٢.

وفي تفسير القمي عن أبي جعفر عليه السلام: في قول الله تعالى: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون﴾، قال: "شرك طاعة وليس شرك عبادة، والمعاصي التي يرتكبون، فهي شرك طاعة أطاعوا فيها الشيطان فأشركوا بالله الطاعة لغيره، وليس بإشراك عبادة أن يعبدوا غير الله"^٣.

اجتماع الشرك مع التوحيد والإيمان

ويرى الطباطبائي أن الشرك أربعة أقسام، فهو نظير الكفر والإيمان يتنوع بحسب الظهور والخفاء، فثمة شرك ظاهر كمن يعتقد بتعدد الآلهة واتخاذ الأصنام والشفعاء، وشرك أخفى من الأول كما عليه أهل الكتاب من الكفر بالنبوة وقولهم العزيز ابن الله ونحن أبناء الله وأحباؤه، وشرك أخفى من الأوليين كما عند من يعتقد استقلال الأسباب والركون لها، وقسم رابع من الشرك يتمثل في الغفلة عن الله تعالى والالتفات إلى غيره، وهو شرك أخص من الجميع.

ومن هنا يبرر اجتماع الشرك مع التوحيد والإيمان مع أنهما معنيان متقابلان، وذلك من جهة كونهما من المعاني التي تقبل في نفسها القوة والضعف، فتختلف النسبة والإضافة

١. انظر: مجلة البحوث الإسلامية، المصدر السابق.

٢. المصدر نفسه: ج ٢ ص ٣٩٧.

٣. القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي: ج ١ ص ٣٥٨.

كالقرب والبعد، فإن القرب والبعد المطلقين لا يجتمعان إلا أنهما إذا كانا نسيبين لا يمتنعان الاجتماع والتصادق كمدينة مكة مثلاً فإنها قريبة بالنسبة إلى المدينة بعيدة بالنسبة إلى الشام. وهكذا الإيمان بالله والشرك به، وحقيقته الأول: تعلق القلب بالله بالخضوع له، وحقيقة الثاني تعلق القلب بغيره تعالى مما لا يملك شيئاً إلا بإذنه تعالى، وهما يختلفان بحسب النسبة والإضافة، فإن من الجائز أن يتعلق الإنسان مثلاً بالحياة الدنيا الفانية وينسى مع ذلك حقيقة الله تعالى، كما أنه من الجائز أن ينقطع عن كل ما يصد النفس ويشغلها عن الله سبحانه ويتوجه بكله إليه ويذكره ولا يغفل عنه، فلا يركن في ذاته وصفاته إلا إليه ولا يريد إلا ما يريده كالمخلصين من أوليائه تعالى.

وبين المنزلتين مراتب مختلفة بالقرب من أحد الجانبين والبعد منه، وهي التي يجتمع فيها الطرفان بنحو من الاجتماع، فقد تجد شخصاً يدعى الإيمان بالله لكنه يخاف وترتعد فرائضه من أي نائبة أو مصيبة تهدده وهو يذكر أن لا قوة الا بالله، وفي الوقت ذاته يلتمس العزة والجاه من غيره، وهو يتلو قوله تعالى: إن العزة لله جميعاً^١.

استقرار الشرك في النفس

ويرى بعض أن التلبس بالشرك بنحو ما لا يكون نظير استقرار الشرك في النفس، فلا يمكن ان يتساويا في نفس الحكم، فإن إطلاق الفعل غير إطلاق الوصف والتسمية به، فللتوصيف والتسمية حكم، ولإسناد الفعل حكم آخر^٢، فلا يسمى بالمشرك مثلاً وغيره من الأوصاف التي تحتمل البقاء والاستمرار إلا من استقر فيه الوصف^٣؛ وذلك لأن إطلاق الفعل لا يدل إلا على تلبس ما؛ بخلاف الوصف؛ فإنه يدل على استقرار التلبس وصورته المعنى الوصفي ملكة لا تفارق الإنسان، ففرق بين قولنا: الذين أشركوا والذين صبروا والذين ظلموا، وبين قولنا المشركين والصابرين والظالمين. فالمشركون هم الذين ثبت فيهم وصف الشرك واستقرت فيهم هذه الصفة^٤.

١. الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان: ج ١١ ص ٢٧٦.

٢. المصدر نفسه: ج ٢ ص ٢٠٣.

٣. المصدر نفسه: ج ١٢ ص ١٧٢.

٤. المصدر نفسه: ج ٤ ص ٣٩.

وقد وردت بعض الروايات تؤكد أن إطلاق وصف الشرك لا يبرره الشرك الخفي، بل ثمة أمور هي التي تحقق وصف الشرك - كما جاء في الكافي -: "عن عباس بن يزيد عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قلت: إن هؤلاء العوام يزعمون أن الشرك أخفى من ديب النمل في الليلة الظلماء على المسح الأسود، فقال: لا يكون العبد مشركاً حتى يصلي لغير الله، أو يذبح لغير الله، أو يدعو لغير الله عز وجل".^١ وسوف نعود لهذه الرواية لاحقاً.

التوحيد ومراتبه في المذاهب الإسلامية

مقتضى الموضوع هنا هو تقسيم البحث تارة بلحاظ الفكر الشيعي وتارة بلحاظ الفكر السني، ومن ثم عقد مقارنة بينهما معاً وبين الفكر السلفي المتطرف التكفيري. وبما أن أهل السنة لم يكونوا ذا منهج عقدي واحد، فثمة مناهج متعددة، ولسنا نقصد المذاهب الفقهية، بل خصوص العقديّة، ولذا من المناسب التعرض لماهية هذه المناهج مختصراً، ومن ثم بيان الرؤية التوحيدية لكل منها. ونبحث أولاً التوحيد في الفكر الشيعي ثم نتبعه بالفكر السني بمدارسه المختلفة.

التوحيد ومراتبه في المذهب الشيعي

لا يختلف كثيراً معنى التوحيد عند الشيعة عما يقرره غالبية علماء أهل السنة - كما سيتضح لاحقاً - فعلماء المذهب الشيعي قرروا التوحيد بصيغ واضحة وعبارات جسدت رؤيتهم التي يعتقدون أنها هي ذاتها رؤية أهل بيت النبوة. وهذه لمحة لبعض كلماتهم:

الصدوق (٣٨١هـ): "اعتقادنا في التوحيد أن الله تعالى واحد أحد، ليس كمثل شيء، قديم لم يزل، سميع بصير، عليم حكيم، حي قيوم، عزيز قدوس، قادر غني، لا يوصف بجوهر ولا جسم ولا صورة ولا عرض ولا خط ولا سطح ولا ثقل ولا خفة ولا سكون ولا حركة ولا مكان ولا زمان".^٢

١. الصدوق، محمد بن علي، الخصال: ص ١٣٧.

٢. الصدوق، محمد بن علي، الاعتقادات في دين الإمامية: ص ٢٢.

وفي كلامه لم نجد أن التوحيد قد قسمه إلى مراتب وأنواع، بل اكتفى بتوحيد الذات مع ذكر الأوصاف.

ويرى الشيخ المفيد (٤١٣هـ) أن الله عز وجل: "واحدٌ في الإلهية والأزلية، لا يشبهه شيء، ولا يجوز أن يماثله شيء، وأنه فردٌ في المعبودية، لا ثاني له فيها على الوجوه كلها والأسباب، وعلى هذا إجماع أهل التوحيد إلا من شذ من أهل التشبيه".^١ والمفيد هنا قد نوّع في مراتب التوحيد، وجعل في المرتبة الأولى التوحيد في الإلهية، ويقصد به توحيد الذات - وقد يدخل فيه توحيد الخالقية والتدبير - والثاني توحيد العبودية.

ويصوغ المظفر (١٣٨٣هـ) اعتقاد الشيعة بعبارة أكثر وضوحاً، ويقسم التوحيد إلى ثلاث مراتب وجهات: توحيد الذات، والصفات، والعبادة، يقول: "يجب توحيد الله تعالى من جميع الجهات، فكما يجب توحيد ذاته في الذات ونعتقد بأنه واحد في ذاته ووجوب وجوده، كذلك يجب ثانياً توحيد ذاته في الصفات، وذلك بالاعتقاد بأن صفاته عين ذاته، وبالاعتقاد بأنه لا شبيه له في صفاته الذاتية، فهو في العلم والقدرة لا نظير له، وفي الخلق والرزق لا شريك له، وفي كل كمال لا ند له، وكذلك يجب ثالثاً توحيد ذاته في العبادة، فلا تجوز عبادة غيره بوجه من الوجوه، وكذا إشراكه في العبادة، في أي نوع من أنواع العبادة، واجبة أو غير واجبة، في الصلاة وغيرها من العبادات، ومن أشرك في العبادة غيره فهو مشرك، كمن يرثي في عبادته، ويتقرب إلى غير الله تعالى، وحكمه حكم من يعبد الأصنام والأوثان، لا فرق بينهما".^٢

ويصطلح البعض من العلماء على أقسام التوحيد بالمراتب بدلاً عن الأقسام، وبعضهم يصطلح الأغصان، وربما ذلك حذراً من إشكال منطقي يتعلق بضرورة التباين بين القسم وقسيمه وعدم التداخل بينهما:

يقول الحائري: للتوحيد أربعة أغصان: الأول: التوحيد في الذات، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ومعنى هذا التوحيد على الإجمال أنه في ذاته واحد لا شبيه له ولا نظير.

١. المفيد، محمد بن محمد بن محمد بن النعمان، أوائل المقالات: ص ٥١.

٢. المظفر، محمد رضا، عقائد الإمامية: ص ٣٧.



الثاني: التوحيد في الصفات: ومعناه على الإجمال أن صفات ذاته عين ذاته لا ثنائية بينها وبين ذاته ولا في ما بين نفس الصفات، فعن أمير المؤمنين أنه قال: «وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه؛ لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه ثناه، ومن ثناه فقد جزّاه، ومن جزّاه فقد جهله»

الثالث: التوحيد في العبادة: ومعناه على الإجمال أنه لا تجوز عبادة أحد سواه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَهَ الْإِلَهِاتِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الرابع: التوحيد في الأفعال: ومعناه على الإجمال أنه لا مؤثر في الوجود إلا الله، وهذا لا ينافي ترتب المسببات على الأسباب كالإحراق على النار، أو القتل على السيف، أو الزرع على البذر والمطر، أو ما إلى ذلك، كما لا ينافي اختيارية الإنسان، وكذلك لا ينافي التوسل بالمعصومين والأولياء.

ويتفرع على هذا التوحيد أغصان كثيرة أهمها: الأول: التوحيد في الخلق، والثاني: التوحيد في الربوبية، والثالث: التوحيد في المالكية والحاكمية التكوينية. والرابع: التوحيد في التشريع. والخامس: التوحيد في الألوهية والطاعة!

المذاهب العقدية عند أهل السنة

سوف نتصّر على أبرز المذاهب العقدية عند أهل السنة، ولذا سوف نتطرق للأشاعرة والماتريدية ومن ثم السلفية والوهابية.

أولاً: الأشاعرة

الأشاعرة مدرسة سنية اتبع منهجها الكثير من كبار فقهاء أهل السنة ومحدثيهم، منهم: الباقلاني (ت ٣٠٣هـ)، والبيهقي (ت ٤٥٨هـ)، والغزالي (ت ٥٠٥هـ)، وابن عساكر (ت ٥٧١هـ)، وابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، والسيوطي (ت ٩١١هـ) وغيرهم. ويمكن للقارئ مراجعة كتاب (تبيين المفتري) لابن عساكر للاطلاع على طبقات الأشاعرة، والتعرف على الكثير من علمائهم.

ويعدُّ الانتساب للمذهب الأشعريّ بمنزلة الانتساب للمذاهب الفقهيّة الأربعة المعروفة، وأنَّ الأشعري هو المقرّر لمذاهب السلف - كما يقول السبكي - وقد ناضل ودافع عمّا كان عليه صحابة رسول الله، فالانتساب له إنّما هو باعتبار أنّه قد عقد على طريق السلف نطاقاً وتمسك به، وأقام الحجج والبراهين عليه، فصار المقتدي به في ذلك، السالك سبيله في الدلائل يسمّى أشعريّاً^١.

وأنَّ عقيدته - أي الأشعري - اجتمع عليها الشافعيّة والحنفيّة وكثير من علماء الحنابلة. قال البيهقي: إنّ الأشعري لم يحدث في دين الله حدثاً، ولم يأت فيه بدعة، بل أخذ أقاويل الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة في أصول الدين فنصرها بزيادة شرح وتبيين^٢.

وبما ذكرناه لا شك أن العقيدة الأشعرية تمثل عقيدة أهل السنة والجماعة أو تمثل الغالبية.

التوحيد وأقسامه عند الأشاعرة

التوحيد عند الأشاعرة يتمثل في ثلاثة أقسام، توحيد الذات والصفات والأفعال يقول اللقاني في شرح جوهره التوحيد: "معنى الوجدانية الواجبة له تعالى: نفي التعدد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله، وقد اشتهر أن الوجدانية تنفي كموماً خمسة: وهي الكم المتصل في الذات، ومعناه أن ذاته مركبة من أجزاء، والكم المنفصل في الذات أيضاً ومعناه تعدد ذات الواجب، بحيث يكونه هناك إله ثان أو أكثر، والكم المتصل في الصفات وهو التعدد في صفاته تعالى بأن يكون له صفتان من جنس واحد، كقدرتين وإرادتين وعلمين، والكم المنفصل في الصفات ومعناه أن يكون لغيره صفة تشبه صفته كأن يكون لأحد قدرة يُوجد بها ويعدم كقدرة الله تعالى، أو يكون لأحد إرادة تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه، أو علم محيط بجميع الأشياء وهكذا، والكم المنفصل في الأفعال ومعناه أن يكون لغيره تعالى فعل من الأفعال على وجه الإيجاد، فوحدة الذات الواجبة له تعالى معناها أن سبحانه وتعالى ليس جسماً مركباً يقبل الانقسام وأنه ليس هناك إله غيره،

١. السبكي، عبد الوهاب بن علي، طبقات الشافعية الكبرى: ج ٣ ص ٣٦٥.

٢. المصدر نفسه.

ووحدة الصفات الواجبة له معناه أنه ليس له صفتان من جنس واحد، وليس لغيره صفة تشبه صفته، ووحدة الأفعال معناها أنه ليس لأحد فعل كفعله^١.

ويتضح من كلام اللقاني وبيانه للأقسام الثلاثة للتوحيد أنه - بحسب الظاهر - لم يشتمل على توحيد الألوهية، بمعنى أنه لم يُضمّن تقسيمات التوحيد الأساسية، الأفراد في العبادة، وهذا ما جعل الأشاعرة عرضة للانتقاد الشديد عند الخط السلفي والتكفير، وسوف نتكلم لاحقاً عن التقسيم الذي اشتهر مؤخراً في العقيدة السلفية: توحيد الربوبية والإلوهية، وستعرض للهدف منه، وما ترتب عليه من نتائج عملية أبرزها تكفير المسلمين.

ثالثاً: الماتريديّة

وهي أيضاً فرقة عقديّة، ومدرسة فكريّة، تتمثل في منهج أبي منصور الماتريدي، المنتسب الى منطقة (ماتريد)، والتي تقع في سمرقند، والمتوفى سنة ٣٣٣هـ. ولا تختلف هذه الفرقة عن سابقتها (الأشاعرة) إلا في مسائل محدّدة وفروع قليلة، حتى حصرها البعض باثني عشر مسألة^٢، فهي امتداد لها في أغلب الأصول وكليات المسائل العقديّة، ويمثّل كتاب العقيدة الطحاويّة للإمام الطحاوي، أحد أبرز الكتب التي تكشف حقيقة الماتريديّة.

ويعتبر المذهب الحنفي أبرز من اعتنق الفكر العقديّ الماتريديّ، بخلاف المذهب الشافعيّ الذي يعتنق الفكر الأشعري^٣.

وقد كان الماتريديّ متبّعاً لمذهب أبي حنيفة، وقيل إنّه بلغ في علم العقيدة مبلغاً يُشار له بالأصابع، لكنّ أكثر ما توصّل له من نتائج على مستوى العقيدة كان متطابقاً مع آراء أبي حنيفة، ولهذا تعدّ آرائه، كما يقرُّ العلماء، هي الأصل الذي تفرّعت عليه آراء أبي منصور الماتريدي، فقد أقام نظريّاته في العقيدة على المأثور من أبي حنيفة؛ مستعيناً في إثبات القضايا الشرعيّة بجملة من الأدلة العقليّة والبراهين المنطقيّة اليقينيّة^٤.

١. اللقاني، عبد السلام، اتحاف المرید بجوهرة التوحيد: ص ٨٢-٨٣.

٢. انظر: ابن كمال باشا، أحمد بن سليمان، رسالة في الاختلاف بين الأشاعرة والماتريديّة المطبوعة ضمن خمس رسائل: ص ٦٧.

٣. المصدر نفسه.

٤. انظر: أبو زهرة، محمد، تاريخ المذاهب الإسلامية: ص ١٧٦-١٧٨.

وكما يعتنق العقيدة الأشعرية الكثير من أهل السنة والجماعة، كذلك العقيدة الماتريدية فهي المكملة لها، فثمة الكثير ممن يعتقد بأفكارها: يقول ابن عابدين الحنفي في رد المحتار على الدر المختار: "أهل السنة والجماعة وهم الأشاعرة والماتريدية، وهم متوافقون إلا في مسائل يسيرة أرجعها بعضهم إلى الخلاف اللفظي".^١

التوحيد وأقسامه عند الماتريدية

كما أشرنا إلى أنه ليس ثمة فروق جوهرية بين الفرقة الأشعرية والماتريدية، وفي عقيدة التوحيد لم يختلفوا عن الأشاعرة، فهو عندهم ثلاثة أنواع أيضاً: "توحيد في الذات، فالله تعالى لا قسيم له بمعنى أنه لا يتبعض ولا يتجزأ، وتوحيد في الصفات، فالله تعالى لا شبيه له، وتوحيد في الأفعال، فالله تعالى لا شريك له في أفعاله. يقول ملا علي القاري: "واحد في ذاته، واحد في صفاته، وخالق لمصنوعاته".^٢

ولهذا يعترض عليهم - ممن يزعم أنه يمثل أهل السنة والجماعة - أنهم قد جعلوا توحيد الربوبية هو الغاية العظمى، مع أنه أمر فطري لا يخالف فيه أحد، وكذلك قد أهملوا توحيد الألوهية تماماً ولم يتطرقوا إليه بكلمة، مع أنه الغاية العظمى من بعثة الرسل.

هذه هي أهم الفرق العقيدية التي تمثل طيفاً واسعاً من أهل السنة قديماً وحاضراً، وبالمقارنة بينها وبين عقيدة الشيعة لا يكاد يكون هناك اختلاف يعتد به فيما يتعلق بنظرتهم للتوحيد والشرك، بل التقارب كبير جداً.

رابعاً: العقيدة السلفية

السلفية من (سَلَف)، بمعنى تقدّم ومضى، والأمم السالفة: الماضية^٣، تُقرأ بفتح السين واللام. ويُقال سلفي؛ انتحالاً لمذهب السلف وطريقتهم^٤. والسلف في

١. ابن عابدين، محمد أمين، رد المحتار على الدر المختار: ج ١ ص ١٤٠.

٢. انظر: الخميس، د. محمد بن عبد الرحمن، الماتريدية ربيبة الكلامية، مجلة البحوث الإسلامية، العدد ٥٥، سنة

١٤١٩هـ: ص ١٣٢.

٣. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج ٩ ص ١٥٨.

٤. انظر: السمعاني، عبد الكريم بن محمد، الأنساب: ج ٣ ص ٢٧٣.



معناه الاصطلاحي - كما عن كشّاف الاصطلاحات - هو اسم لكلّ من يُقلدُ مذهبهُ في الدين ويَتَّبِعُ أثره^١.

فالسلفية على هذا- اصطلاحاً- هم الذين يعتقدون معتقد السلف ويتهجون منهجهم، ويحتذون حذو السلف بالمعنى المتقدّم^٢. لكنّ هذا التعريف لا يرفع الغموض والإبهام عن المعنى الدقيق للسلفية، بسبب الإبهام والتعدد الذي حصل مؤخراً في معنى السلف، الذي يشكلّ العنصر الأساسي في تعريفهم.

فالسلف المتَّبِع، والذي يعني كلّ ما هو ماضي ومتقدّم، تارة يراد به هنا: خصوص الكتاب والسنة، وتارة أخرى: مذاهب المتقدّمين، وثالثة: المأثور من خصوص الصحابة، ورابعة: المأثور بما يشمل الصحابة والتابعين ومن تابعهم^٣. ويرى بعض^٤ أنّ السلف اصطلاح قد استقرّ على خصوص الصحابة والتابعين وتابعيهم، والتحديد بهؤلاء ناشئ مما ورد عن النبي^٥: "إنّ خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم".

وعلى أية حال؛ لو أريد بالسلف خصوص نصوص الكتاب والسنة، فإنّ الجميع سيكون سلفياً بهذا المعنى، لأنّ ثمة إجماعاً على أنّ المسلمين قاطبة مصدرهم الأساس هو ذلك، هذا أولاً، وثانياً: كيف يتحقّق معنى السلفية بهذا المعنى مع وجود اختلاف الرؤى والتفسيرات لهذه النصوص؟ وكذلك فيما يتعلّق بالمأثور من الصحابة والتابعين، فهذا أيضاً متضارب ومتهاافت في كثير منه، فأيّ منه يكون هو المتَّبِع؟ وكذلك الحال فيما لو كان المقصود مذاهب المتقدّمين وآرائهم الاجتهادية.

إذن، تعدّد الرؤية للموروث الإسلاميّ يُفضي إلى الغموض في اصطلاح السلفية، وهذا يستلزم بحثاً تاريخياً لجذور هذه الكلمة؛ لكي تتضح معالمها بنحو دقيق.

١. التهانوي، محمد بن علي، كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ج ١ ص ٩٦٨.

٢. انظر: د. أحمد فريد، السلفية قواعد وأصول: ص ٧. وانظر: عمارة، محمد، السلفية: ص ٨.

٣. انظر: السلفية، محمد عمارة: ص ٨.

٤. د. أحمد فريد، السلفية قواعد وأصول: ص ٧. وانظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، السلفية مرحلة زمنيّة لا مذهب

إسلامي: ص ٩.

٥. البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري: ج ٣ ص ١٥١، انظر: أحمد فريد، السلفية قواعد وأصول: ص ٦.

جذور السلفية

في ظلّ تعقيد نمط الحياة من جيل إلى جيل آخر، وظهور نظريات كلامية فرضها واقع هذا التعقيد؛ سعيًا وراء إيجاد الحلول للمشاكل العقديّة، وفي بعضها كان ثمة إهمالًا للنصوص الإسلاميّة، وغضٌ للطرف عمّا هو مآثور من تراث الصحابة والتابعين، برز تيارٌ إسلاميٌّ استشعر غربة الإسلام في ظلّ تلك النظريات؛ بما تحمله من تعقيدات في باطنها وعدم يسر لفهمها، فطفق مجموعة من العلماء ينادون بالعودة إلى إسلام السلف، بعيداً عن مناخ الفلسفة والكلام، وبعيداً عن سلطة العقل في تقديم براهينه على النصوص والمآثور.

وكان على رأس هؤلاء العلماء المنادين بذلك أحمد بن حنبل (٢٤١هـ)، الذي يُعتبر من الذين وضعوا الخطوط والمبادئ العامّة للاتجاه السلفي، في مواجهة ما كان يعتقده من البدع والمحدثات التي أوجدت الغربة في الإسلام^١.

المبادئ العامّة للعقيدة السلفية الحنبليّة

ومن هذه المبادئ التي أسس لها أحمد بن حنبل:

- ١- الإيمان قول وعمل. ٢- كلام الله تعالى ليس بمخلوق، كما أنه ليس شريكاً للذات الإلهية في القَدَم. ٣- كلّ ما وصّف الله تعالى ذاته من أوصاف فينبغي وصفه بها، فلا تعطيل ولا تأويل. ٤- رؤية أهل الجنة لله تعالى عقيدة حقّ يجب الاعتقاد بها دونما أيّ تأويل أو تمثيل. ٥- علم الكلام علم مُنكر ولا يجوز استلهاهم العقائد منه. ٦- الاعتقاد بالقضاء والقدر ممّا يكتمل بهما الإيمان، وهما من الله تعالى. ٧- الكبائر لا تجعل المؤمن كافراً. ٨ - خلافات الصحابة يجب العدول عن التعرّض لها والاقتصار على ذكر محاسنهم. ٩- أفضلية الخلفاء الأربعة بحسب تسلسلهم في تسلّم الخلافة. ١٠- طاعة وليّ الأمر واجبة حتى لو كان فاسقاً فاجراً^٢.

هذه هي مجمل أفكار أحمد بن حنبل، والتي ظهرت بوادرها في زمن الدولة العباسية،

١. عمارة، محمد، السلفية: ص ١٣.

٢. انظر: اللالكائي، هبة الله، شرح اعتقاد أصول السنة: ص ١٥٦ - ١٦٤. وانظر: ابن حنبل، أحمد، أصول السنة: ص ١٤ وما بعدها. وانظر: أبو يعلى، محمد بن الحسين، الأحكام السلطانية: ص ١٢.

ولم يكن لها حظٌ من الاهتمام، إلى أن جاء المتوكل العباسي (٢٣٢هـ)، فاستبدل المعتزلة بأصحاب الحديث، فانتعش آنذاك الفكر السلفي وساد منهجه، وأصبح علماء الحديث أبرز أعلام الحركة السلفية وروادها.

عقيدة سلفية ابن تيمية

واستمرّ الفكر السلفي بذات المبادئ العامّة، وعلى نفس النهج الذي خطّه ابن حنبل إلى القرن السابع الهجري، إلى أن ظهرت شخصية ابن تيمية وابن القيم الجوزية، اللذين زعما أن ثمة بدعاً وخرافات تُشكل خطراً على التوحيد خصوصاً وعلى العقيدة عموماً؛ ممّا يستلزم إعادة صياغة العقيدة السلفية وإلباسها ثوباً جديداً، وكان التجديد يتحرّك في دائرة أصليين هما: حصر العبودية بالله تعالى ورفض الشرك، والاقتصار في العبودية على ما علم جوازه ورفض البدع، قال ابن تيمية: "جماع الدين أصلان: ألا نعبد إلا الله، ولا نعبد إلا بما شرّع، لا نعبد بالبدع".^١

وفي الحقيقة؛ لم يكن هناك من جديد في تجديد ابن تيمية غير التركيز على الدعوة - وبقوة - إلى أفكار ورؤى أحمد بن حنبل، بعد مرور أكثر من ثلاثة قرون عليها، وتشديد الخناق على مناخ السجلات بأدوات الفلسفة والمنطق، التي اعتقدوا أنّها قد زعزعت الأفكار الأصيلة للإسلام، ومنحت وثوقاً كبيراً في أحكام العقل؛ فأفضى ذلك إلى تأثر وتحسُّس الكثير له، وفيهم من العلماء، فابتعدوا - بحسب اعتقاد ابن تيمية - عن المنبع الأصيل: كتاب الله وسنة نبيه.^٢

أبرز سمات السلفية التيمية

ويمكننا القول إن أبرز سمات الفكر السلفي في عصر ابن تيمية تتمثل في التشديد على توحيد العبادة، وحصر الوسائل المفضية لها فيما هو مشروع، وفقاً لأدلة يعتقدون بصحتها، ورفض كل ما هو غير ذلك، ورمي القائل به بالبدعة والشرك، وعلى هذا يتفرّع:

١. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم، مجموع الفتاوى: ج ١٠ ص ٢٣٤.

٢. انظر: ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم، الردّ على المنطقيين، قال في ص ٣٢١: «إنّ ما عند أئمة النظار، أهل الكلام والفلسفة، من الدلائل العقلية على المطالب الإلهية، فقد جاء القرآن بما فيها من الحقّ وما هو أكمل وأبلغ منها على أحسن وجه، مع تنزهّه عن الأغاليط الكبيرة الموجودة عند هؤلاء، فإنّ خطأهم فيها كثير جداً، ولعلّ ضلالهم أكثر من هداهم وجهلهم أكثر من علمهم».

“أنّ دعاء الله تعالى من جملة العبادات، ومن دعا المخلوقين من الموتى - أيّاً كانوا - واستغاث بهم؛ كان مبتدعاً في الدين ومشرکاً، ومن سأل الله تعالى بالمخلوقين، أو أقسم عليه بالمخلوقين؛ كان مبتدعاً بدعة ما أنزل الله بها من سلطان”^١.

وحاصل هذا الاعتقاد: أ- منع التقرب لله تعالى بالصالحين والأولياء. ب: منع الاستغاثة والتوسّل بالموتى وغيرهم. ج: منع زيارة قبور الصالحين والأنبياء للتبرّك والتقدّيس^٢. كما أن السمة الثانية هي التوسّع في التكفير، ومن ثمّ جواز قتل المخالف المقدور عليه؛ يقول ابن تيمية: “فأمّا قتل الواحد المقدور عليه من الخوارج، كالحرورية والرافضة ونحوهم، فهذا فيه قولان للفقهاء؛ هما روايتان عن الإمام أحمد، والصحيح: أنّه يجوز قتل الواحد منهم، كالداعية إلى مذهبه، ونحو ذلك ممّن فيه فساد”^٣.

معالم التوحيد في العقيدة السلفية

الوهابية والتيار التكفيري

وقبل أن نتعرض لمعالم التوحيد في العقيدة السلفية نتعرض للوهابية كعقيدة استلهمت جل أفكارها من التيار السلفي الحنبلي، واختزلت عقيدة أهل السنة والجماعة في فكرها بيد أنها تطرفت كثيراً في فهم هذه العقيدة مما أوقعها في الغلو في التكفير، بل أضحى ذلك اليوم أبرز معالمها، فنقول:

لم تظهر في الفترة التي تلت القرن الثامن الهجري أية محاولة تدعو للتجديد في مجال العقيدة أو الفقه، بل ساد الركود والجمود، ولم يكن ثمّة جديد سوى العمل ببعض آراء الفرق القديمة وترجيح بعض الآراء على بعض، كترجيح رأي المعتزلة على حساب رأي الأشاعرة مثلاً، أو اختيار رأي الأشعريّ دون الماتريديّ، وهكذا.

واستمرّ هذا الحال حتى منتصف القرن الثاني عشر الهجري، إلى أن ظهر شخص في الجزيرة العربية - من مدينة نجد بالخصوص - يُدعى محمّد بن عبد الوهاب (ت ١٢٠٦هـ)، حنبلي المذهب، توهم أتباعه أنّه حمل لواء التجديد في

١. انظر: ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، قاعدة جلية في التوسّل والوسيلة: ص ٢٥٦.

٢. انظر: أبو زهرة، محمد، تاريخ المذاهب الإسلامية: ص ٢٠٥.

٣. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى: ج ٢٨ ص ٤٩٩.



الفكر الديني، بذريعة أنَّ غربة الإسلام قد بلغت ذروتها؛ من خلال مُمارسة طقوس يزعمون أنَّها وثنيَّة، ومجموعة من الخرافات والبدع شلَّت الفكر الإسلامي، وأنَّ ثمة حاجة كانت وضرورة لإزالة هذا الاغتراب، والعودة بالإسلام إلى سابق عهده، في إطار ما يؤمنون به من الآراء الحنبليَّة، وآراء ابن تيميَّة ومعتقداته التي قاربت من الاندثار والاضمحلال^١.

ومما يؤسف له لم تكن الحركة الوهابيَّة مقتصرة على مستوى التنظير الديني، بل الممارسات العمليَّة قد اختلطت مع الجانب النظري للعقيدة وأصبحت جزءاً منها، فلو وقفنا على أفكار ابن تيميَّة لم نجد أنَّه سعى إلى تهديم القبور عملاً بقدر ما أفتى بحرمة الاستغاثة بالميت، في حين نجد أنَّ محمَّد بن عبد الوهاب أوَّل ما عمد إلى قبَّة زيد بن الخطَّاب قاصداً هدمها - وقد هدمها فعلاً بيديه - مدعيًا أنَّها وضعت على الباطل، وأنَّها منطلقٌ للضلال والزيغ عن الهدى^٢، بل تعدَّى ذلك إلى التفكير في هدم قبور الأنبياء وسائر الأئمَّة^٣ انطلاقاً من تفسيرهم المغلوط للأحاديث التي تنهى عن اتخاذ القبور مساجد، مضافاً لتحريمهم الاستغاثة بصاحب القبر، حتى لو كان نبياً، مثل نبينا محمد^٤ الذي ثبت بالصحيح أنَّه حيُّ يسمع السلام ويردُّه^٥، وبهذا فهو قد أسَّس شريعة وجوب تهديم القبور بعمله هذا، فأصبح فيما بعد شعاراً يُنادي به أتباعه، وممارسة عباديَّة ينبغي فعلها.

كما نلاحظ أنَّ فريضة الجهاد يراها ضرورة ومُلزمة ضدَّ المسلمين، الذين يزعم أنَّهم لا

١. انظر: أبو زهرة، محمد، تاريخ المذاهب الإسلاميَّة: ص ١٩٠، ص ٢١١. وانظر: ضاهر، محمد كامل، الدعوة الوهابيَّة

وأثرها في الفكر الإسلامي الحديث: ص ٨-١٩. وانظر: رشيد رضا، محمد، الوهابيون والحجاز: ص ٦، ص ٤٧.

٢. انظر: ابن بشر، عثمان بن عبد الله، تاريخ نجد: ج ١ ص ٣٩.

٣. المصدر نفسه: ج ١ ص ٢٨٨، يقول: «بايع أهل المدينة سعود على دين الله ورسوله... وهدمت جميع القبب التي وضعت على القبور والمشاهد».

٤. المصدر نفسه: ج ١ ص ٣٦. وانظر أيضاً: الألباني، محمد ناصر، تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد: ص ٩ وما بعدها.

٥. فقد ورد بحديث صحيح عن أبي هريرة، عن رسول الله^٦ أنَّه قال: «ما من أحد يُسلم عليَّ إلا ردَّ الله عليَّ روعي حتىَّ أردَّ عليه السلام». أبو داود، سنن أبي داود: ج ١ ص ٤٥٣. وقد ذكر النووي: «رواه أبو داود بإسناد صحيح». النووي، المجموع: ج ٨ ص ٢٧٢. وفي حديث آخر صحيح مروى: عن أنس عن النبي^٧ أنَّه قال: «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلُّون». انظر: ابن حجر، فتح الباري: ج ٦ ص ٣٥٢. وقد صححه الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة: ج ٢ ص ١٨٧.

يوحدون الله، وكأنّ الإسلام قد اندثر وعاد الناس إلى الجاهلية الأولى، وأنّ الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد بعثه الله تعالى لإنقاذهم من الكفر والضلال:

يقول ابن بشر في كتابه عنوان المجد: "ولما منّ الله سبحانه بظهور هذه الدعوة، وهذا الدين، واجتماع شمل المسلمين، وإشراق شمس التوحيد على أيدي الموحّدين، أمر الشيخ بالجهاد لمن أنكر التوحيد من أهل الإلحاد".^١

وهكذا فقد اصطبغت دعوة ابن عبد الوهاب بالدماء، وما انفكّ يحصد رؤوس المسلمين بذريعة الشرك والإلحاد، وبرزت للواجهة مصطلح الغزوات والوقائع وتقسيم الغنائم والبيعة، وقد وقع الكثير من الضحايا الأبرياء نتيجة تلك الغزوات الهمجية والدموية، التي وقعت تحت ستار مخالفة الدين، والارتداد عن التوحيد؛ بحسب ما يُفسّره محمد بن عبد الوهاب، ذلك التفسير الذي أضحي مبرراً لقتل كلّ المخالفين والرافضين له ووصمهم بالمشركين، فهتك أعراضهم، ونهب أموالهم، وسبي نسائهم، تحت عنوان الغنائم، وكان محمد عبد الوهاب في كثير من الأحيان يشرف بنفسه على تقسيمها.^٢ وهو الذي يؤصل أن كلّ "من غلا في نبيّ أو رجل صالح أو غير صالح، وجعل فيه نوعاً من الإلهية، مثل أن يقول: يا سيدي فلان، أغثنني وأجبرني وانصرني، أو اقض ديني، أو أنا فقير إليك، أو أنا في حسبك، أو متوكّل عليك، أو يذبح له، أو ينذر له، أو يرجوه أو يخافه، فهذا كلّه شرك وضلال وجنون وخبال، يُستتاب صاحبه وتُقام عليه الحجّة؛ فإن تاب وإلا ضربت عنقه... وكلّ من قصد قبراً أو حجراً أو شجرة، حياً أو ميتاً، وعظّمه ودعاه، واستغاث به، وتبرّك به، وعكف عليه؛ فقد أتخذة إلهاً مع الله".^٣

نظرة السلفية التكفيرية للشرك والتوحيد

وأهمّ ما اتّسم به فكر ابن عبد الوهاب - كما أشرنا - هو المبالغة والإيغال في التكفير، ولك أن تراجع كتاب الدرر السنية لتجد أنّه قد كفر الكثير، ابتداءً بعلماء نجد وقضاتها؛

١. ابن بشر، عثمان بن عبد الله، تاريخ نجد: ج ١ ص ٤٨.

٢. انظر: غنّام، حسين، تاريخ نجد: ص ٩٥ - ١٠٩.

٣. المصدر السابق: ص ٤٧-٥٠.

الذي يتهمهم بعدم معرفة الإسلام^١ ومروراً ببعض علماء الحنابلة، وغيرهم؛ الذين اعتبرهم مشركين شركاً أكبر ينقل من الملة^٢ وتكفير المسلمين بنجد والحجاز؛ الذين اعتقد أنهم ينكرون البعث والمعاد^٣ بل وتكفير كل أهل بلد لم يكن تحت طاعته، حتى الحرمين الشريفين^٤ وتكفير أهل مكة والمدينة؛ زاعماً أن دينهم هو الذي من أجل بعث رسول الله لينذر عنه^٥، وتكفير البدو؛ زاعماً أنهم أشد كفرةً من اليهود والنصارى^٦ وتكفير كل من يتحرّج من تكفير أهل لا إله إلا الله^٧ وتكفير أهل الوشم^٨ وتكفير أكثر أهل الشام^٩ وتكفير بعض علماء الكلام كابن عربي^{١٠} وتكفير بعض علماء التفسير كالفخر الرازي؛ زاعماً أن له كتاباً يحسن فيه عبادة الكواكب^{١١} وغير ذلك^{١٢}.

وينطلق محمد بن عبد الوهاب في هذه الرؤية التكفيرية - إذا ما استثنينا العناصر الذاتية في شخصيته - من نظريته للتوحيد؛ وأنه ينقسم إلى قسمين: توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية، وأن الأول لو ثبت عند شخص لا يحصن دمه وعرضه وماله ما لم يثبت الثاني: يقول في رسائله: "الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ، وقتلهم، وأباح أموالهم، واستحل نساءهم؛ كانوا مقرين لله سبحانه بتوحيد الربوبية، وهو أنه لا يخلق، ولا يرزق، ولا يحيي، ولا يميت، ولا يدبر الأمور إلا الله وحده. كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأُمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾،

١. انظر الدرر السنية في الأجوبة النجدية، مجموعة من علماء نجد: ج ١٠: ص ٥١، ص ٥٧.

٢. المصدر نفسه: ج ١٠: ص ٣٧، ص ٧٨، ص ٦٣.

٣. المصدر نفسه: ج ١٠ ص ٤٣.

٤. المصدر نفسه: ج ١٠: ص ٧٥، ص ٦٤، ص ٧٧، ص ١٢، ص ٨٦.

٥. المصدر نفسه: ج ١٠ ص ٨٦، ج ٩: ص ٢٩١.

٦. المصدر نفسه: ج ١٠: ١١٣-١١٤، ج ٨: ص ١١٧-١١٩.

٧. المصدر نفسه: ج ١٠: ص ١٩٣.

٨. المصدر نفسه: ج ٢ ص ٧٧.

٩. المصدر نفسه: ج ٢ ص ٤٥.

١٠. المصدر نفسه: ج ١٠: ص ٢٥.

١١. المصدر نفسه: ج ١٠ ص ٧٢، ص ٢٧٣.

١٢. انظر: المالكي، حسن فرحان، كتاب محمد بن عبد الوهاب داعية وليس نبياً: ص ٨١ وما بعدها. وقد فصل المؤلف في مذهب التكفير عند ابن عبد الوهاب، وذكر نماذج كثيرة صريحة وواضحة في تكفيره المسلمين، أوصلها إلى أربعين نموذجاً.

وهذه مسألة عظيمة جليلة مهمة، وهي أن تعرف أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ شاهدون بهذا كله ومقرّون به، ومع هذا لم يدخلهم ذلك في الإسلام، ولم يحرم دماءهم ولا أموالهم، وكانوا أيضاً يتصدّقون ويحجّون ويعتصرون ويتعبّدون ويتركون أشياء من المحرّمات؛ خوفاً من الله عزّ وجلّ، ولكن الأمر الثاني هو الذي كفرهم وأحلّ دماءهم وأموالهم، وهو: أنّهم لم يشهدوا الله بتوحيد الألوهية، وتوحيد الإلهية هو ألاّ يُدعي ولا يُرجى إلاّ الله وحده لا شريك له، ولا يُستغاث بغيره، ولا يُذبح لغيره، ولا يُنذر لغيره؛ لا لملك مقرّب ولا نبيّ مرسل، فمن استغاث بغيره فقد كفر، ومن ذبح لغيره فقد كفر، ومن نذر لغيره فقد كفر، وأشباه ذلك... هذا هو معنى (لا إله إلاّ الله)، فإنّ من نخا نبيّاً أو ملكاً أو نذبه أو استغاث به فقد خرج من الإسلام، وهذا هو الكفر الذي قاتلهم عليه رسول الله ﷺ^١. وهكذا يبقى الإنسان كافراً حتى مع تشهده ونطقه الشهادتين، ما دام لم يحقّق هذا المعنى من توحيد الإلوهية، وما دام يتوسّل بنبيّ أو رجل صالح.

وأكثر عنصر ركّز عليه الفكر الوهابي في الشرك والتكفير هو التوسّل والاستغاثة بالأنبياء والأئمّة والصالحين، ولهذا نجد أنّ ابن عبد الوهاب يعتقد أنّ منشأ هذا الشرك أشدّ من الكفر في الجاهلية، يقول: "إنّ مشركي زماننا أغلظ شركاً من الأوّلين، لأنّ الأوّلين يُشركون في الرخاء ويخلصون في الشدّة، ومشركو زماننا شركهم دائم؛ في الرخاء والشدّة. والدليل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي النُّجُومِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾^٢. فانطلقوا من ذلك في تهديم الأضرحة وقبور الصحابة والصالحين وسوؤها مع الأرض، حتى أنّهم استحقّوا بذلك وصف: هدامي المعابد^٣.

خلل التيار التكفيري في فهم حقيقة الشرك والتوحيد

المتتبع للفكر الوهابي لا يشك أن ثمة انسياقاً وتقليداً أعمى لمنظومة أفكار ابن تيمية مع ما تضمنت من أخطاء واضحة، وفي مجال عقيدة التوحيد نجد أن محمد ابن عبد

١. ابن عبد الوهاب، محمد مجموعة رسائل في التوحيد والإيمان: ص ٣٦٥-٣٦٦.

٢. ابن عبد الوهاب، محمد، رسائل محمد بن عبد الوهاب، الرسالة الثانية والعشرون تحت عنوان: مؤلّفات الشيخ محمد عبد الوهاب: ص ١٥٢.

٣. انظر: أبو زهرة، محمد، تاريخ المذاهب الإسلامية: ص ٢١٣.



الوهاب وأتباعه قد انطلقوا في فهم التوحيد والشرك في إطار ما كان يؤمن به ابن تيمية أيضاً، فهو يعتقد أن التوحيد الذي بعث به النبي نوعان: توحيد قولي وتوحيد عملي، يقول: «التَّوْحِيدُ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ قَوْلًا وَعَمَلًا: التَّوْحِيدُ الْقَوْلِيُّ مِثْلُ سُورَةِ الْإِخْلَاصِ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وَالتَّوْحِيدُ الْعَمَلِيُّ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾»^١.

فلا يعتقد ابن تيمية أن التوحيد يتحقق بمجرد النطق بالشهادة وقول لا إله إلا الله، بل هناك بُعد عملي لا بد من توفره، يتمثل في الجانب العبادي، والذي اصطلح عليه بتوحيد الإلهوية، مقابل الإقرار بأن الله واحد وخالق ومدبر، والذي اصطلح عليه بتوحيد الربوبية، ورأى انطلاقاً من فهمه لبعض آيات القرآن أن التوحيد الذي يكون المعيار بين الشرك والكفر هو التوحيد في الجانب العبادي (توحيد الإلهوية)؛ ضرورة أن الكفار زمان النبي كانوا يقرّون بتوحيد الربوبية لكن لم ينفعهم ذلك.

وسار على هذا المبدأ أتباع ابن تيمية خصوصاً محمد بن عبد الوهاب الذي قعد وأصل لهذه المبدأ في كثير من كتبه، وفي أحدها يقول: «التوحيد لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل فإن اختل شيء من هذا لم يكن الرجل مسلماً» ولا يخفى ما في هذا الكلام من تععيد لتكفير سائر المسلمين ممن لا يعرف الحقائق والإلزامات التي ذكرها ابن عبد الوهاب، وبهذا يستطيع أتباع الشيخ أن يختبروا الناس في عقائدهم عند كل بلدة يدخلونها أو يكاتبونها، فإن وجدوا عندهم تحفظاً أو أخطاء استحلوا قتالهم لأنهم غير مسلمين^٢.

توحيد الربوبية والإلهوية

اشتهر في العقيدة السلفية - تبعاً لابن تيمية - تقسيم التوحيد إلى توحيد ربوبية وتوحيد إلهوية، وأن الاعتقاد لا بد أن يتضمّنهما معاً: ويقصد بتوحيد الربوبية والإلهوية، بأن الأول هو: «توحيد الله بأفعاله من الخلق والرزق والإحياء والإماتة ونحو ذلك، وتوحيد الألوهية هو إفراد الله بالعبادة من صلاة وصوم وحج وزكاة ونذر وذبح ونحو ذلك»^٣.

١. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى: ج ١: ص ٣٧٦.

٢. انظر: المالكي، حسن فرحان، ابن تيمية داعية وليس نبياً: ص ٧٧.

٣. انظر: فتاوى اللجنة الدائمة: ج ٢٦، فتوى رقم: ٩٧٧٢.

يقول ابن تيمية في الاستقامة: "التوحيد الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه هو أن يعبد الله وحده لا شريك له، فهو توحيد الإلوهية، وهو مستلزم لتوحيد الربوبية، وهو أن يعبد الحق رب كل شيء، فأما مجرد توحيد الربوبية وهو شهود ربوبية الحق لكل شيء، فهذا التوحيد كان في المشركين، كما قال تعالى: وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون"^١.

ويقول في منهاج السنة في سياق مناقشته للفلاسفة: "أخرجوا عن بعض الحق المشترك بينهم وبين غيرهم، ودخلوا في بعض الباطل المبتدع، وأخرجوا من التوحيد ما هو منه، كتوحيد الإلهية وإثبات حقائق أسماء الله وصفاته، ولم يعرفوا من التوحيد إلا توحيد الربوبية، وهو الإقرار بأن الله خالق كل شيء وربّه، وهذا التوحيد كان يقر به المشركون الذين قال الله عنهم: ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله"^٢.

نظرة في تقسيم التوحيد إلى: الربوبية والإلوهية

جدور تقسيم التوحيد إلى ربوبية وإلوهية، وأن الكفار في زمن الدعوة كانوا مقرين بتوحيد الربوبية، تعود للمفسر المعروف ابن جرير الطبري، يقول: "الله جل ثناؤه قد أخبر في كتابه عنها - العرب - أنها كانت تقر بوحدانيته، غير أنها كانت تشرك في عبادته ما كانت تشرك فيها، فقال جل ثناؤه: ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله، وقال: قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والابصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون"^٣.

وهنا أمران ينبغي تسليط الضوء عليهما: الأول: هل يصح تقسيم التوحيد إلى: ربوبية وإلوهية؟ والأمر الثاني: هل أن الكفار زمن النبي كانوا يقرون بتوحيد الربوبية ولم ينفعهم في شيء؟

١. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم، الاستقامة: ج ٢ ص ٣١.

٢. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم، منهاج السنة: ج ٣ ص ١٧١.

٣. الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان: ج ١ ص ٢٣٨.

اتجاهان في تقسيم التوحيد الى ربوبية وإلوهية

وفيما يتعلق بالأمر الأول هناك اتجاهان في قبول تقسيم التوحيد الى ربوبية وإلوهية، فالأول يرى أن هذا التقسيم من ابتداع ابن تيمية وأنه ليس ثمة ما يشار له في القرآن ولا في السنة ولا في كلام السلف قبل ابن تيمية، فقد أرسل الله تعالى نبيه محمد^١ بكلمة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وحث عليها ووعد قائلها ومعتقدها الجنة، وقد وردت بذلك الآيات والأخبار الصحيحة، منها: قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمَرْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾^٢ ومن الأخبار الصحيحة، فقد روى البخاري ومسلم: أن النبي^٣ قال: "من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبدُ الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، والجنة حقٌ والنار حقٌ ادخله الله الجنة على ما كان من العمل" وقال: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله" ومما تقدم من الآيات والروايات يتضح جلياً أن الله تعالى قد بين لنا أن التوحيد هو: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولم يذكر في كتابه ولا النبي في سنته أنه ينقسم الى توحيد ربوبية وتوحيد إلوهية وتوحيد أسماء وصفات، بل هذا التقسيم بدعة مذمومة حدثت في القرن الثامن الهجري، أي بعد زمان النبي^٤ بنحو ثمانمائة سنة، ولم يقل بهذا التقسيم أحد من قبل^٥.

وفي مقابل هذا نجد أن هناك من يعترف بهذا التقسيم ويعتقد أن الكافر مسلم بكبرى أن الله تعالى هو الخالق الوحيد للكون، فهناك إقرار بتوحيد للربوبية من الكفار، بيد أنهم ينكرون خصوص توحيد الإلوهية، فكانوا يشركون في العبودية، والنبي إنما جاء ليحقق هذا النوع من التوحيد لا التوحيد الربوبي، فيذهب مثلاً ابن القيم الجوزية الى قبول هذا التقسيم^٦، وتبعه كثير من أتباع مدرسة ابن تيمية العقيدية كشارح العقيدة الطحاوية ابن أبي العز وغيره^٧.

١. محمد: ١٩.

٢. الفتح: ١٣.

٣. انظر: السقاف، حسن بن علي، صحيح شرح العقيدة الطحاوية: ص ٩٨-٩٩.

٤. ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، مدارج السالكين: ج ١ ص ٤٨.

٥. انظر: ابن أبي العز، محمد بن علاء الدين، شرح العقيدة الطحاوية: ج ١ ص ٧٨.

والإنصاف أن أصل التقسيم لا ضير فيه، لكن المشكلة في فقه هذا التقسيم ونتائجه، فمن يستقرئ القرآن يعثر على شواهد تؤيد هذا التقسيم، فلا مانع من القول به؛ اعتماداً على الاستقراء القرآني، وإن كان التوحيد لا ينحصر بما ذكر من قسمين فقط، وقد صرح بذلك الشنقيطي في تفسير البيان، قال: "وقد دل استقراء القرآن العظيم على أن توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام: الأول توحيد في ربوبيته... الثاني: توحيد في العبادة... والثالث توحيد جلاً وعلاً في أسمائه وصفاته".^١

توحيد الربوبية

إنما المهم هو الأمر الثاني المتعلق بأن الكفار كانوا يعترفون بتوحيد الربوبية وأن المرفوض عندهم كان خصوص توحيد الإلوهية. هذا هو الأمر المهم، وينبغي التوقف فيه، ودراسة أسسه ومنطلقاته.

معنى توحيد الربوبية

في اللغة للرب مجموعة من المعاني: منها: المالك، والسيد المطاع؛ والمُصْلِحَ ونحو ذلك^٢. ولا يطلق هذا الاسم إلا على الله، وفي غيره لا بد من أن تقيده، فيقال: رب الدار، ورب الضيعة^٣.

وفي الاصطلاح في الفكر السلفي: بأنه أفراد الله تعالى بأفعاله، من الخلق والرزق والتدبير والإحياء والإماتة، وسائر أنواع التصريف والتدبير، وإفراده تعالى بالحكم والتشريع بإرسال الرسل وإنزال الكتب^٤.

وفي هذا التعريف إشكال حاصل من إدخال الخلق ونحوه في التعريف، وعدم الاقتصار على التدبير، فإن التوحيد في الربوبية يعني: انحصار التدبير في الله سبحانه^٥، أما الخلق والإيجاد فهو متعلق لمعنى توحيد آخر، وسوف يتضح تفصيل ذلك بنحو أكثر لاحقاً.

١. الشنقيطي، محمد الأمين، أضواء البيان: ج ٣ ص ١٧.

٢. انظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج ١ ص ٤٠٠.

٣. الطبرسي، الفضل بن الحسن، تفسير مجمع البيان: ج ١ ص ٥٥.

٤. فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء: ج ١ ص ٢٠.

٥. انظر: السبحاني، جعفر، الإلهيات (بتقرير حسن محمد مكّي): ص ٤٠٣.

خطأ ابن تيمية في تقرير توحيد الربوبية

فهو يعني كما ذكرنا أفراد الله تعالى في أفعاله كالخلق والرزق والتدبير ونحو ذلك. يعتقد الفكر الوهابي أن ثمة تلازماً بين توحيد الإلهية والربوبية لكن لا ينعكس، فلا تلازم بين توحيد الربوبية والإلهية، كما هو الحال في كفار قريش فقد كانوا يؤمنون بتوحيد الربوبية، لأن هذه المعرفة لهم ضرورية وفطرية، لكنهم لم يكونوا يوحّدون الله في الإلهية والعبادة، فالتوحيد في الإلهية هو مورد الخلاف عندهم. كما يعتقد أن الأنبياء لم تكن بعثتهم من أجل توحيد الربوبية ولا من أجل الإيمان بالله تعالى، بل كان همهم الوحيد هو إبلاغ توحيد الألوهية.

ويقول في هذا ابن تيمية: "وقول صاحب الشرع: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، لم يقل: حتى يقولوا: إن ربهم رباً؛ إذ هم عارفون بذلك، وإنما أمرتهم الرسل أن يصلوا معرفة التوحيد بمعرفة الربوبية والوحدانية فأبوا".^١ وقال: "من لم يجعل الله معبوداً محبوباً فإنما يشهد أن لا رب إلا هو، والمشركون كانوا يقرون بهذه الشهادة لم يشهدوا أن لا إله إلا الله، والرسل عليهم الصلاة والسلام بعثوا بتوحيد الألوهية المتضمن توحيد الربوبية، وأما توحيد الربوبية مجرداً فقد كان المشركون يقرون بأن الله وحده خالق السموات والأرض كما أخبر الله بذلك عنهم في غير موضع من القرآن".^٢

وعلى هذا يتفرع عدم الاكتفاء بتلفظ الشهادتين وترتيب أثرهما من التوحيد ما لم يقترن معها التوحيد في العبادة.

وهذا الكلام ليس صحيحاً ويكفي في دحضه ما سنذكره من شواهد قرآنية تؤكد أن الكفار لم يكونوا موحدين للربوبية في جميع أفعال الله تعالى، بل غاية ما يمكن إثباته هو التوحيد في بعض أفعاله، كالخلق والرزق والتدبير العام، وأما أن الأنبياء لم يُبعثوا للإيمان فيكفي في سقوطه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَسْمَعُ مَنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾. كما أن الدليل قائم على أن توحيد الربوبية - لمن يعتقد به - يكفي في نجاة الإنسان

١. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم، درء تعارض العقل والنقل: ج ٤ ص ٣٥٢.

٢. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم، منهاج السنة: ج ٥ ص ٢٣٣.

وهذا يكشف تلازم بينه وبين توحيد الإلوهية والعبودية لا كما يقول أتباع الفكر التكفيري من عدم التلازم، وهناك شواهد على هذا أيضاً، ويكفي ذلك قوله تعالى: «الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ»^١، فالحزن والخوف ينتفي بالاعتقاد بربوبية الله جل وعلا، وقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخْفُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ»^٢، فيكفي الإقرار بالربوبية في ترتب النجاة والفوز بالجنة وعدم الخوف والحزن وهي تلازم توحيد العبودية.

إقرار المشركين بتوحيد الربوبية

ذكرنا سابقاً أن التيار التكفيري ينطلق في تكفيره لشريعة كبيرة من المؤمنين من نقطة الشرك وعدم التوحيد الخالص، هذا التوحيد في صيرورته يتمثل في توحيد الإلوهية الذي يعني توحيد العبادة، وهذا التوحيد عندما يتحقق فهو يلازم توحيد الربوبية، ولا عكس، فتوحيد الربوبية لا يلازم توحيد الإلوهية، بذريعة أن الكفار والمشركين زمن النبي كانوا يقرون بتوحيد الربوبية لكنه لم ينفعهم ذلك.

ومن جملة الآيات القرآنية التي يستدل بها على هذا:

قوله تعالى: «وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ»^٣، وقوله تعالى: «وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَلَّى يُؤْفَكُونَ»^٤ وغير هذه الآيات.

ولا شك في أن ظاهر هذه الآيات هو إقرار المشركين بأن الله تعالى هو الخالق، وكأنه أمر قد جبلت عليه فطرتهم. لكن الإشكال إنما يكون في معنى الربوبية، فهل هي تعني الخالقية أم تعني التدبير أم ما يعمهما؟

يرى بعض^٥ أن إقرارهم إنما كان في خصوص الخالقية، وعلى هذا لا يصح القول إن الكفار كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، بل كان إقرارهم على مستوى الاعتقاد بأن الله تعالى هو خالق الكون حصراً.

١. الاحقاف: ١٣.

٢. فصلت: ٣٠.

٣. لقمان: ٢٥. الزمر: ٣٨.

٤. الزخرف: ٨٧.

يقول صاحب تفسير الميزان في قوله تعالى: ﴿وَلئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله﴾. "شروع في إقامة الحجة، وقد قدم لها مقدمة تبتني الحجة عليها، وهي مسلمة عند الخصم، وهي أن خالق العالم هو الله سبحانه، فإن الخصم لا نزاع له في أن الخالق هو الله وحده لا شريك له، وإنما يدعي لشركائه التدبير دون الخلق".^١

فمسألة توحده في الخلق هي حقيقة قد اعترف بها المشركون، ولكنهم ابتلوا بالانحراف فيما يتعلق بمسألة توحده في الربوبية، ففي بعض الأحيان اعتبروا الأصنام هي التي تحفظهم وتحميهم وتدبر أمرهم، وكانوا يلجؤون إليها عندما يواجهون أي مشكلة.^٢ بينما يذهب الكثير من أتباع المدرسة السلفية - كما أشرنا - إلى الثاني ويعتقدون بالشمول، وأن الكفار كانوا يقرون في الخالقية والتدبير معاً. ومن هنا فمن رأى أن توحيد الربوبية كان مما يقر به المشركون إنما جاء هذا نتيجة الخلط الذي وقع فيه بين توحيد الربوبية وتوحيد الخالقية.

الخلط بين توحيد الربوبية وتوحيد الخالقية

وقد أشار بعض علماء الشيعة المعاصرين - كالسبحاني - إلى هذه المسألة، وصرح أن الوهابية قد وقعوا في إشكال؛ ورتبوا على ذلك نتائج مغلوطه؛ وذلك حينما خلطوا بين التوحيد في الربوبية والتوحيد في الخالقية، في حين أن المشركين أنفسهم يعتقدون بكون النجوم والأصنام - ونحو ذلك - رباً لا خالقاً.

يقول السبحاني: "والحق أن اتفاق جميع مشركي عهد الرسالة في مسألة التوحيد الخالقي ليس موضع شك، ولكن تسمية التوحيد الخالقي بالتوحيد الربوبي خطأ واشتباه؛ وذلك لأن معنى الربوبية ليس هو الخالقية كما توهم هذا الفريق، بل ما يفيد التدبير وإدارة العالم، وتصريف شؤونه، ولم يكن هذا موضع اتفاق بين جميع المشركين والوثنيين في عهد الرسالة كما ادعى هذا الفريق... والتوحيد في الربوبية: انحصار التدبير في الله سبحانه، يستفاد بجلاء من مطالعة عقائد الوثنية في كتب الملل والنحل أن مسألة التوحيد في الخالقية كانت موضع اتفاق، وأن الانحراف كان في مسألة التدبير أولاً، والعبادة ثانياً. فكان

١. الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان: ج ١٧ ص ٢٦٦.

٢. انظر: الشيرازي، ناصر مكارم، الأمل في تفسير كتاب الله المنزل ج ١٥ ص ١٣٧.

الوثنيون موحدين في أمر الخلقة مشركين في الربوبية ثم في العبادة. وكان الشرك في العبادة عاماً، بخلاف الشرك في التدبير فلم يكن مثله في السعة والشمول...”

وقد حاول أن يثبت بكثير من الآيات القرآنية خطأ استعمال التوحد الربوبي في قبال التوحد الخالقي، وأن الأصل في كلمة الرب هو التدبير لا الخالقية^١.

وقد يكون سبب الخلط هو بعض الآيات القرآنية التي ألحقت التدبير أيضاً بالخالقية في إقرار المشركين، كما في الآية التي استدلت بها محمد بن عبد الوهاب، في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمِنَ الْمَيِّتِ مَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأُمُورَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾^٢. فكان القرآن يؤكد أن المشركين كانوا يقولون بأن الله تعالى هو رازقهم وهو المالك لسمعهم وأبصارهم وهو الذي يمنحهم الحياة، وهو أيضاً يدبر أمورهم.

فهذه الآية توهم أن الربوبية تعم الخالقية والتدبير، وقد يؤكد هذا التوهم أن الأصل اللغوي لكلمة الرب، تعم المالك والخالق والمدبر (المصلح). كما يقول ابن فارس: “الراء والباء يدل على أصول فالأول إصلاح الشيء، والقيام عليه. فالرَّبُّ: المالك، والخالق، والصَّاحِب. والرَّبُّ: المُصْلِح للشيء”^٣.

لكن التدبير المقصود في الآية السابقة هو التدبير العام كما يقول الطباطبائي من أن: “تدبير أمر العالم: هو نظم أجزائه نظماً جيداً متقناً بحيث يتوجه به كل شيء إلى غايته المقصودة منه، وهي آخر ما يمكنه من الكمال الخاص به، ومنتهى ما ينساق إليه من الأجل المسمى”^٤. فهذا المعنى من التدبير كان مما يقر به أهل الشرك كما هو مفاد الآية.

وهذا التدبير العام يقابله التدبير الخاص التفصيلي في كل شأن من شؤون حياة الإنسان وجزئياتها الدقيقة، كما أشار لهذا الطباطبائي، يقول في تفسير قوله تعالى: قل من يرزقكم... فسيقولون الله...: “هذا اعتراف بأنه هو الذي ينتهي إليه جميع هذه التدبيرات

١. انظر: السبحاني، جعفر، التوحيد والشرك: ص ٦٥.

٢. يونس: ٣١.

٣. ابن فارس، أحمد، مقاييس اللغة: ج ٢ ص ٣٨٢.

٤. الطباطبائي، محمد حسن، تفسير الميزان: ج ١١ ص ٢٩٠.



في الإنسان وغيره، لأن الوثنيين يعتقدون ذلك، فأمر النبي ﷺ أن يوبخهم أولاً على ترك تقوى الله بعبادة غيره^١.

أي ان الكفار كانوا يعتقدون أن منتهى التدبير هو الله تعالى، مع أنهم يعتقدون أن الله تعالى قد فوض تدبير الانسان للأصنام أو للملائكة. وحمل التدبير على التدبير العام صحيح، لضرورة أن الكثير من الآيات - كما سوف يأتي - تؤكد شركهم في التدبير الخاص لكل مفاصل الحياة وجزئياتها.

ونحن في هذا المقال سوف نغض الطرف عما قيل إنه يتنافى مع التوحيد الربوبي، من قبيل أن بعض الطوائف الإسلامية يعتقدون بنحو من التدبير والتصرف لبعض الأئمة والأولياء ونحو ذلك، فهذا - على تقدير صحة ثبوته عندهم - يجمعه جواب واحد حاصله أن التدبير وكذلك الخلق وغيره من أفعال الله تعالى إنما ينبغي الإقرار بفردانيتها أصالة لا تبعاً، بمعنى أنه لا ضير في أن نعترف أن الله تعالى هو المدبر لهذا الكون، لكنه في الوقت ذاته يمكن له أن يتيح وبيح ويرخص في ذلك لبعض خلقه كالملائكة مثلاً أو لبعض الأئمة، فهذا لا يتنافى مع التوحيد، وعندئذ ينتقل البحث إلى صحة ثبوت تلك الرخصة والإباحة وعدمها.

الكفار والمشركون لا يقرون بتوحيد الربوبية

لم يكن المشركون عامة وكفار قريش خاصة موحدين للربوبية كما زعم ابن تيمية وأتباعه، فإن توحيد الربوبية هو أفراد الله تعالى بجميع أفعاله من دون اقتصار على فعل دون آخر، ومن استقراء القرآن نجد أن ثمة أفعالاً لم يكن الكفار معترفين بها، بل كانوا ينكرونها:

شواهد قرآنية على عدم إقرار الكفار بتوحيد الربوبية

على سبيل المثال نجد أن القرآن يقرر أن الكفار قد أنكروا البعث والنشور، وهما من أفعال الرب بلا شك:

١. المصدر نفسه: ج ١٠ ص ٥٣.

يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾^١ ويقول تعالى: ﴿وَلئن قُلْتِ إِتَّكُم مَّبْعُوثِينَ مِن بَعْدِ المَوْتِ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾^٢ وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنِ ادَّكَّنَا تُرَابًا وَّابًا وَّنَا أَنِنَّا لَنُخْرَجُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا مَحْنُ وَّأَبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾^٣ وغير ذلك من الآيات الكثيرة.

كما نجد أنهم يرجون العزة والنصر من دون الله، وهما من فعل الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لَّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾^٤.

كما أنهم يعتقدون بأن غير الله له القدرة على النفع والضرر، وهما من أفعال الربوبية، كما في قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يَضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾^٥.

كمال نجد أنهم يشركون غير الله تعالى في التدبير، فهم يعتقدون بتعدد الأرباب: كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ﴾^٦ وقوله تعالى: ﴿أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ وغير ذلك، بل يصرح القرآن أنهم كانوا يشركون معه غيره، كما في قوله تعالى الذي نقلناها سابقاً في سورة مريم: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً﴾.

وعلى أي حال لا يمكن نفي إشراكهم في الربوبية، كما هو مفاد آيات صريحة بذلك، كما في قوله تعالى الذي يخاطب فيه من أنكر الربوبية: ﴿لِكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾^٧ وكما في قوله تعالى نقلاً عن لسان الكفار يوم القيامة: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَبِّحُكَ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^٨.

وبهذا يتضح أنه لا ملازمة بين إقرارهم بالخالفية والرازقية وبين نفي الشريك في الربوبية في جميع صورها.

١. الأنعام: ٢٩.

٢. هود: ٧.

٣. النمل: ٦٧-٦٨.

٤. مريم: ٨١.

٥. الزمر: ٣٦.

٦. ال عمران: ٦٤.

٧. الكهف: ٣٨.

٨. الشعراء: ٩٧-٩٨.



ويتبين بهذا خطأ تقرير أن الكفار كانوا يقرون بتوحيد الربوبية بفطرتهم، وأن الأنبياء لم يبعثوا للناس بهذا النوع من التوحيد، وتركزت دعوتهم على توحيد العبادة. هذال ما يتعلق بتوحيد الربوبية.

توحيد الإلوهية

وعلى أي حال سواء كان المشركون يقرون بتوحيد الخالقية بالخصوص أم بما يشمل التدبير، فإن الركيزة التي ينطلق منها الفكر التكفيري هي أن حقيقة التوحيد تتمثل في توحيد الإلوهية الذي يعني التوحد في العبادة، فهو المعيار في تمييز المسلم عن المشرك، وعندئذ كل ما يعتبر عبادة لغير الله تعالى فهو شرك وكفر، فينبغي على المسلم أن يترك جملة من الأمور التي زُعم أنها عبادة لغير الله، كالتوسل وزيارة القبور والنذر والحلف بغير الله تعالى ونحو ذلك.

فينبغي التدقيق في هذا النحو من التوحيد، ومعرفة معناه، والبحث عما قيل إنه يقع في دائرة عبادة غير الله تعالى.

معنى توحيد الإلوهية

أشرنا سابقاً إلى تعريف توحيد الإلوهية بشكل مختصر، وقلنا هو إفراد الله بالعبادة. والإلوهية: هي العبادة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَذَرِكْ وَأَهْتَكْ﴾ بناء على صحة قراءة ابن عباس، فقد ورد أنه قرأ: ﴿ويذرك وإهتك﴾ بكسر الهمزة، أي: عبادتك. والإله: بمعنى المألوه، أي: المعبود.

وتوحيد الألوهية: هو الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى هو المستحق للعبادة وحده، مع التزام ذلك والعمل به، وعرف أيضاً بأنه: إفراد الله بجميع أنواع العبادة.^١ وتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية، بمعنى أنه داخل ضمن توحيد الألوهية، فمن عبد الله وحده ولم يشرك به شيئاً فلا بد أن يكون قد اعتقد أنه ربه ومليكه لا رب له غيره، ولا مالك له سواه.^٢

١. انظر: المعتق، عواد بن عبد الله، توحيد الإلوهية، مجلة البحوث الإسلامية: ج ٧٦: ص ٩٤.

٢. المصدر نفسه: ج ٧٦ ص ١٠٥.

وهذا التعريف بناء على أن المقصود منه التوحيد في العبادة، فلا حاجة لبحث صحة التعريف وعدمه - مع أنه يمكن ذلك - فلا حاجة مثلاً للتفريق بين الإله والرب ونحو ذلك، فإن مضمون التوحيد المقصود لم يكن مورد شك عند جميع المسلمين، فجميعهم يعتقدون أن الله ينبغي إفراده بالعبادة، وأن كل عبادة لغيره هي شرك عظيم ومعصية كبيرة. لكن المهم البحث في طبيعة العبادة وحدودها، ليتسنى معرفة بعض التطبيقات الخارجية التي زعم الفكر الوهابي أنها عبادة لغير الله المستلزم ذلك لتصنيف طائفة من المسلمين في مجموعة الكفار والمشركين.

معنى العبادة لغة وشرعا

يقول ابن منظور: "العبادة في اللغة: الطاعة مع الخضوع، ومنه طريق معبد إذا كان مذكلاً بكثرة الوطء... والتَّعْبُدُ: التَّنَسُّكُ، والعبادة: الطاعة... وكل من دان لملك فهو عابد له، ومنه: قوله تعالى: وقومهما لنا عابدون؛ أي دائنون" ١.

فالمعنى اللغوي للعبادة إذن هو الخضوع والتذلل، لكن هذا المعنى لا يمكن أن يكون هو المعنى الشرعي لها، فليس كل تعظيم وخضوع وتذلل يكون عبادة شرعاً؛ ضرورة أن هناك ما لا يطلق عليه عبادة مع تحقق الخضوع والتذلل فيه، فالإنسان الذي يهجم عليه عدو ويخضع له ويتذلل لا يقال له قد عبده، كما أن تذلل الشخص في حضرة الملك وخضوعه له - سواء كان بإرادته أم مكرهاً على ذلك - لا يعد عبادة عرفاً، كما لم يكن تعظيم الصحابة للنبي^ص وتذللهم له وخشوعهم من العبادة في شيء، وهكذا تعظيم العلماء والتذلل لهم ونحو ذلك، فالعبادة في الشرع تفارق العبادة في اللغة، كما هو الحال في مثل الصلاة، فهي في اللغة عبارة عن الدعاء بينما في الشرع لا تكون كذلك، بل لا بد من تحقق مجموعة من الأفعال والأقوال المخصوصة. ومن هنا لا بد من البحث عن معنى يقترب من المعنى اللغوي لكنه لا يطابقه.

ومن خلال الاستقصاء والاستقراء التاريخي للمفردة، يمكن القول إن الخضوع الذي كان يمارسه المشركون تجاه الأصنام ونحوها، والذي وصف بأنه عبادة لها، لم يكن

١. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج ٣ ص ٢٧٣.



خضوعاً وتذلاً مجرداً، بل ناجماً عن عقيدة خاصة في الآلهة والأرباب، والاعتقاد بأن لهم حظاً من الربوبية والتدبير.

وهذا المعنى هو الصحيح والقريب من المعنى اللغوي، فإن الشخص في المرتبة الأولى لا بد أن يعتقد أن ثمة صفات ذاتية تستوجب عبادة شيء، ثم في المرتبة اللاحقة يتجه لتحقيق تلك العبادة فعلاً وخارجاً، أي أنه لا بد من اعتقاده بالوهية شيء حتى يخضع له ويتذلل ويكون ذلك عبادة. وهذا يعني أن العبادة لا تكون إلا في شيء يُعتقد أنه يستحق العبادة.

وعندئذ تكون العبودية والإلهية قد أخذت قيداً بمرتبة سابقة في معنى العبادة، أي أن العبادة هي الخضوع والتذلل والتعظيم والطاعة لشيء يعتقد أنه يستحق العبادة والإلهية أي فيه خصوصية الربوبية، فمعنى العبادة شرعاً - كما عرفه بعض العلماء - هو الإتيان بأقصى الخضوع قلباً وقالباً، فالقلبية: اعتقاد الربوبية أو خصيصة من خصائصها كالاستقلال بالنع أو الضر ونفوذ المشيئة لا محالة لمن اعتقد فيه ذلك، والقلبية: هي الإتيان بأنواع الخضوع الظاهرية من قيام وركوع وسجود وغيرها مع ذلك الاعتقاد القلبي، فإن أتى بواحد منها بدون ذلك الاعتقاد لم يكن ذلك الخضوع عبادة شرعاً ولو كان سجوداً.

وبهذا التعريف يتضح أن الاعتقاد هو الأساس في صيرورة الفعل المُتعبد به عبادياً، ولهذا فمن يحكم بكفر الساجد للصنم؛ إنما لكونه أمانة وعلامة على ذلك الاعتقاد، لأنه كفر من حيث ذاته، إذ لو كان لذاته كفراً لما كان جائزاً ومباحاً في شريعة قط، وسيكون من موارد الفحشاء، والله تعالى لا يأمر بالفحشاء، بينما كان السجود لغير الله عز وجل على وجه التحية والتكريم مشروعاً في الشرائع السابقة وإنما حرم في هذه الشريعة، فمن فعله لأحد تحية وإعظماً من غير أن يعتقد فيه ربوبية وإن كان آثماً بذلك السجود، لكنه لا يكون به كافراً إلا إذا قارنه اعتقاد الربوبية للمسجود له.

ويشهد لهذا ما ورد القرآن في قصة نبي الله يعقوب عليه السلام وامراته وبنيه حين دخلوا على يوسف، يقول تعالى: ﴿وَحَزُوا لهُ حُزْبًا﴾، ويفسر ابن كثير هذه الآية: "أي سجد له أبواه وإخوته الباقون وكانوا أحد عشر رجلاً... وقد كان هذا سائغاً في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام،

فحرم هذا في هذه الملة، وجعل السجود مختصاً بجناب الرب سبحانه وتعالى^١. ويشهد على صحة ذلك أيضاً ما ورد في القرآن من أمر الله تعالى لملائكته بالسجود لآدم؛ إكراماً لآدم^٢، وبما مر يتضح أنه ليس كل تعظيم لشيء عبادة له شرعاً، حتى يكون شركاً^٣.

وفي المحصلة فإن حقيقة العبادة تقوم بأمرين: الأول: يرجع إلى جوارح الإنسان المشعرة بالتعظيم والخضوع. والثاني: يرجع إلى عقيدة الخاضع في حق المنخضوع له بنحو من الأنحاء من كونه خالقاً أو رباً أو من بيده مصير الإنسان كلاً أو جزءاً، فلا تتحقق مفهوم العبادة إلا بتحققهما معاً^٤. فلا يكون من العبادة فعل السجود والركوع والوقوف والقنوت والطواف والسعي وكذلك إطلاق المجامر وإيقاد الشموع ونحوها إلا إذا صرف لمن يُعتقد فيه الإلهوية والربوبية^٥.

فعندئذ يكون ما ذكر من تعاريف يظهر منها العموم، لا بد أن يكون المقصود منها مقيداً بهذا القيد.

ومن هذه التعريفات ما ذكره ابن تيمية من أن العبادة: "اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، كالصلاة والزكاة، والصيام والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام... والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة"^٥.

مضافاً إلى أن هذا التعريف فيه خلطٌ بين العبادة وبين ما يوجب القربى، فهناك أمور توجب رضا الله وتستوجب ثوابه قد تكون عبادة كالصوم والصلاة والحج ونحوها، وقد تكون موجبة للقربى إليه دون أن تعدّ عبادة كالإحسان إلى الوالدين والعطف على اليتيم والتصديق على الفقير ونحو ذلك، وتسميتها بالعبادة إنما بلحاظ كونها نظير العبادة في

١. ابن كثير، إسماعيل، تفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص ٥٠٩.

٢. انظر: القضاعي، سلامة، البراهين الساطعة في رد بعض البدع الشائعة: ص ٣٧٦ - ٣٨٠.

٣. انظر السبحاني، جعفر، بحوث قرآنية في التوحيد والشرك، السبحاني: ص ٤٤.

٤. انظر: المسعري، محمد بن عبد الله، التوحيد: ص ٢٦٧.

٥. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم، العبودية: ص ٤٤.

ترتب الثواب عليها^١. ويمكن التسامح وإطلاق اسم العبادة بالمعنى الأعم عليها في مقابل العبادة بالمعنى الأخص التي تتعلق بما ثبت أنه عبادة فعلاً من الشارع. وبعد معرفة حقيقة العبادة ومقوماتها، سيكون التقييم عندئذ واضحاً لما ذكره ابن تيمية - ومن تبعه أمثال محمد بن عبد الوهاب ومن كان على نهجهم التكفيري - من الموارد التي زعموا أنها عبادة لغير الله كزيارة القبور والأضرحة والتوسل ونحو ذلك.

توحيد التيار التكفيري وزيارة القبور

هناك هوسٌ وحساسية مفرطة في الفكر التكفيري تجاه زيارة القبور - مع ثبوت جواز زيارتها^٢ - ولا مبرر عقلائي ومنطقي لها، وربما يمكن التعبير عن ذلك بالأزمة القبورية، فالعقل التكفيري قد عبأ بمفاهيم خاطئة - وبشكل مستمر - بما يكفي لتأصيل نزعة تتجه للحكم بكفر وشرك كل من يزور القبور، ويخرجه عن الملة، بحيث أضحت مسألة شرك القبور هي الطامة الكبرى والمصيبة العظمى التي ينبغي صرف الجهود المادية والعلمية لمعالجتها، وأصبحت هذه المسألة هي الشغل الشاغل في حياة المسلمين، بينما تُركت الكثير من المشاكل الخطيرة والأكثر أهمية بلا حلول، والمنطلق كما قلنا هو رؤيته القاصرة للتوحيد والشرك، وأن في زيارة القبور تعظيماً للميت وتذلاً وخشوعاً يجعله في مطاف العبادة لغير الله تعالى، بينما الحقيقة أنه عندما يزور المسلمون قبر نبيهم^٣ تعظيماً له واعتقاداً منهم أنه حي يسمع ويرد السلام، كما يرجون شفاعته يوم القيامة، لا شك أن هذا ليس شركاً؛ لخلوه من اعتقاد الإلوهية كما ذكرنا، كما أن متفرعات زيارة القبور كالبناء عليها، واتخاذها مسجداً ليس مما له صلة بالعقيدة الإسلامية حتى تكون منطناً للتوحيد والشرك، وإنما هي من المسائل الفقهية التي يدور أمرها بين الإباحة والكره والاستحباب وغيرها، ولا يصح لمسلم أن يتخذ تلك المسألة ذريعة للشرك والتكفير^٤.

١. السبحاني، جعفر، التوحيد والشرك في القرآن: ص ٩٣.

٢. انظر على سبيل المثال: النيسابوري، مسلم، صحيح مسلم: ج ٣ ص ٦٥، انظر في ذلك: السبكي، تقي الدين علي بن عبد الكاف، شفاء السقام في زيارة خير الأنام.

٣. السبحاني، جعفر، بحوث قرآنية في التوحيد والشرك: ص ٦٩.

توحيد التيار التكفيري والتوسل

يزعم التيار التكفيري انطلاقاً من رؤيته الضيقة في التوحيد والشرك أن التوسل بالأولياء والصالحين عبادة لغير الله تعالى، لأن الدعاء عبارة عن النداء وطلب الحاجة، ولا شك عندهم أن الدعاء عبادة للمدعو؛ لأنه يتضمن قصداً وتوجهاً، وهذه الأمور هي روح العبادة وقوامها، ولذا ورد في الحديث أن الدعاء مخ العبادة، وبالتالي يكون دعاء غير الله تعالى وندبته وطلب الحاجة منه عبادة له، وهو من أوضح أنواع الشرك في العبادة، ويعبر عنه بالشرك الصريح أو الشرك الأكبر، الذي يوجب الردة والارتداد عن الدين. ولا ينبغي جعل وسائط مع الله تعالى، وهناك من القرآن ما يمنع هذا النحو من التوسل كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾.

والجواب يتضح بما ذكرنا من تعريف العبادة المتمقومة بأمرين، ثانيهما: أن يتوفر على اعتقاد بأن المدعو فيه خصيصة الربوبية، كما إذا اعتقد الداعي أن المدعو مستقل بالقدرة، غني بالذات، وأما إذا اعتقد الداعي أن المدعو يستمد القدرة من الله تعالى، وأنه إنما حصل عليها لتقواه وقربه عند الله تعالى، وأن الداعي إنما يدعوه نظراً لقربه ووجاهته من الله تعالى، وأن تكريم الله له بالقرب والوجاهة يكون إذناً منه للاستشفاع والتوسل والتوجه به إليه عزوجل، فإن دعاء ذلك الغير يعدّ حينئذ توجهاً وقصداً إلى الذات الإلهية. فلا يوجد عندئذ عبادة تستوجب الشرك^١. والآية التي ذكرت لا تمت للاستدلال بشيء؛ كونها تختص بالمشركين الذين كانوا يعبدون أولياءهم ويتقربون بها لله، يقول الطبري: "وقوله: والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى يقول تعالى ذكره: والذين اتخذوا من دون الله أولياء يتولونهم، ويعبدونهم من دون الله، يقولون لهم: ما نعبدكم أيها الآلهة إلا لتقربونا إلى الله زلفى، قرية ومنزلة، وتشفعوا لنا عنده في حاجاتنا"^٢.

وهب أن ذلك عبادة لغير الله - كما يزعمون - لكن لا تجعل الشخص في مرتبة الشرك الأكبر، بل معصية من الشرك الخفي أو الإصغر الذي لا يخرج من الملة، فقد مر

١. الزمر: ٣.

٢. انظر: السند، محمد، الإمامة الإلهية: ج ٤ ص ٢٣٠.

٣. الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان: ج ٢٣ ص ٢٢٧.

سابقاً أن الشرك المخرج عن الإسلام هو أن تجعل لله نداً وهو خلقك، أو هو أن تجعل مع الله إلهاً آخر، كما ورد عن أبي بكر، عندما خاطبه النبي: "يا أبا بكر للشرك فيكم أخفى من ديبب النمل، فقال أبو بكر: وهل الشرك إلا من جعل مع الله إلهاً آخر"، فهذا النوع من الشرك هو المخرج عن الملة، وهنا بلا شك لا يرى المتوسل أن الميت إلهاً آخر أو نداً مع الله تعالى، فكيف يكون مشركاً شركاً أكبر مهدور الدم والمال والعرض!!!

أو يكون داخلياً في شرك الطاعة الذي مر سابقاً الذي لا يخرج عن الملة أيضاً، على أن وصف المشرك هنا يصح إطلاقه فيما لو ثبت استقرار التلبس بالشرك وصورته ملكة لا تفارق الإنسان أما لو لم يكن كذلك بل كان التلبس به لا على نحو يتحقق معه الملكة فلا يكون وصف المشرك على من فعل ذلك صحيحاً.

أما الآيات القرآنية التي تمنع الدعاء من دون الله كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْمَعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾^١. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾^٢. وقوله تعالى: ﴿فَلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا نُجُوتًا﴾^٣، فإن الدعاء في هذه الآيات وغيرها - إن قصرناه على المعنى المتعارف للدعاء ولم نفسره بالعبادة - فهو يرجع إلى دعاء المشركين لمن يعتقدون فيهم الإلهية وخصائص الربوبية؛ ولهذا يعبدونهم، فهو الذي يكون دعاء العبادة، بينما المتوسل لا يعبد إلا الله الواحد الأحد، ودعاؤه ليس اعتقاداً منه بقدرته المتوسل به الذاتية على الاستجابة كما مر، بل يتوسل بالصالحين؛ لتقواهم وعظيم إيمانهم؛ لأجل قضاء حاجته واستجابة دعائه من الله تعالى؛ ظناً منه أن ذنوبه التي ارتكبها تكون حائلاً بينه وبين ربه في قضاء حاجته فلا يستجيب الله له مباشرة؛ فيقدم ما يعتقد أنه وسيلة لقضاء حاجته من عند الله تعالى. وقد ثبت جواز ذلك ولا حرمة فيه.

ولا فرق في ذلك بين كون الطلب لأمر لا يقدر عليه إلا الله تعالى المعبر عنه بدعاء

١. البخاري، محمد بن إسماعيل، الأدب المفرد: ص ١٥٥.

٢. الأعراف: ١٩٧.

٣. الرعد: ١٤.

٤. الإسراء: ٥٦.

العبادة، وبين أمر يقدر عليه غير الله تعالى المعبر عنه بدعاء المسألة، أو بين دعاء الحي ودعاء الميت، فالجميع خاضع لمعيار واحد وهو أن السائل إن اعتقد فيمن يسأله بالألوهية فهو شرك وإلا فلا.

وبهذا يتضح الفارق بين التوحيد عند المذاهب الإسلامية وبين ما يعتقدونه أتباع الفكر التكفيرى أمثال ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب ومدرستهم الذين حصروا معنى التوحيد بترك التوسل بالأنبياء ونحو ذلك، فزعموا أن: "هذا هو معنى (لا إله إلا الله)، فمن نخا نبياً أو ملكاً أو نذبه أو استغاث به فقد خرج من الإسلام، وهذا هو الكفر الذي قاتلهم عليه رسول الله ﷺ".^١

ونقول أخيراً أن تفسيرهم للتوحيد يترتب عليه نتائج خطيرة هدامة، ولا بد من إيقاف مسلسل هدم الإسلام، كما نقل عن عمر بن الخطاب: "هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قال: قلت: لا، قال: يهدمه زلة العالم، وجدال المنافق بالكتاب، وحكم الأئمة المضلين".^٢

وأن على علماء المسلمين تقع اليوم مسؤولية عظيمة في بيان خطأ ومنطلقات الفكر التكفيرى الذي عاث في الأرض فساداً، وبيان الوجه الناصع والحقيقى للدين الإسلامى بعيداً عن ترهات التيار الوهابى والتكفيرى وبعيداً عن تأثيرهم العقائدى والفقهى.

١. ابن عبد الوهاب، محمد، مجموعة رسائل في التوحيد والإيمان: ص ٣٦٥-٣٦٦.

٢. الدارمى، عبد الله، سنن الدارمى: ج ١ ص ٧١.



المصادر:

١. ابن أبي العز، صدر الدين محمد بن علاء الدين الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق جماعة من العلماء، تخريج: ناصر الدين الألباني، ط١، ١٤٢٦هـ.
٢. ابن بشر، عثمان بن عبد الله بن بشر النجدي الحنبلي، عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق: عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ، الناشر: مطبوعات دار الملك عبد العزيز، ط٤ - ١٤٠٢هـ.
٣. ابن تيمية، أبو العباس، أحمد بن عبد الحلیم درء تعارض العقل والنقل تحقيق: محمد رشاد سالم، الناشر: دار الكنوز الأدبية - الرياض، ١٣٩١هـ.
٤. ابن تيمية، أبو العباس، أحمد بن عبد الحلیم، الاستقامة، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود - المدينة المنورة، ط١، ١٤٠٣هـ.
٥. ابن تيمية، أبو العباس، أحمد بن عبد الحلیم، الردّ على المنطقيين، الناشر: دار المعرفة، بيروت.
٦. ابن تيمية، أبو العباس، أحمد بن عبد الحلیم، الصفدية، تحقيق: محمد رشاد، ط٢، ١٤٠٦هـ.
٧. ابن تيمية، أبو العباس، أحمد بن عبد الحلیم، العبودية، تحقيق: محمد زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت، ط٧، ١٤٢٦هـ.
٨. ابن تيمية، أبو العباس، أحمد بن عبد الحلیم، قاعدة جلييلة في التوسّل والوسيلة، تحقيق: ربيع بن هادي عمير المدخلي، الناشر: مكتبة الفرقان، ط١، ١٤٢٢هـ.
٩. ابن تيمية، أبو العباس، أحمد بن عبد الحلیم، مجموع الفتاوى، الناشر: دار الوفاء، ط٣، ١٤٢٦هـ.
١٠. ابن تيمية، أبو العباس، أحمد بن عبد الحلیم، منهاج السنة، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، الناشر: مؤسسة قرطبة، ط١ - ١٤٠٦هـ.
١١. ابن تيمية، أبو العباس، أحمد بن عبد الحلیم، نقد مراتب الإجماع، الناشر: مكتبة القدسي، ط٧، ١٣٥٧هـ.
١٢. ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، الناشر: دار المعرفة - بيروت، ط٢.
١٣. ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد، أصول السنّة، الناشر: دار المنار - السعودية، ط١١، ١٤١١هـ.
١٤. ابن عابدين، محمد أمين بن عمر، حاشية رد المحتار على الدر المختار، الناشر: دار عالم الكتب، الرياض، طبعة خاصة، ١٤٢٣هـ.
١٥. ابن عبد الوهاب، محمد، مجموعة رسائل في التوحيد والإيمان، تحقيق: إسماعيل بن محمد الأنصاري، الناشر: مطابع الرياض.
١٦. ابن عبد الوهاب، محمد، مؤلفات الشيخ الإمام محمد عبد الوهاب، تحقيق: عبد العزيز زيد الرومي، د. محمد بلتاجي، د. سيد حجاب، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض.

١٧. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله، تبين كذب المفترى، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، ط ٣- ١٤٠٤هـ.
١٨. ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط ١٤١٤هـ الناشر: مكتبة الإعلام الإسلامي.
١٩. ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم، غريب الحديث، تحقيق: د. عبد الله الجبوري، الناشر: دار الكتب العلمية، ط ١- ١٤٠٨هـ.
٢٠. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٣٩٣هـ.
٢١. ابن كثير الدمشقي، أبو الفداء، إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، تقديم: يوسف عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار المعرفة- بيروت، طبعة عام ١٤١٢هـ.
٢٢. ابن كمال باشا، أحمد بن سليمان، خمس رسائل في الفرق والمذاهب، تحقيق: د. سيد باخجوان، الناشر: دار السلام، ط ١، ١٤٢٥هـ.
٢٣. ابن منظور، أبو الفضل، جمال الدين بن مكرم، لسان العرب، الناشر: دار صادر - بيروت، ط ١.
٢٤. أبو داود، سليمان بن الأشعث بن شداد بن عمرو السجستاني، سنن أبي داود، تحقيق وتعليق: سعيد محمد اللحام، الناشر: دار الفكر- بيروت، ط ١- ١٤١٠هـ.
٢٥. أبو زهرة، محمد، تاريخ المذاهب الإسلامية، الناشر: دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٦م.
٢٦. الأحكام السلطانية، أبو يعلى، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف ابن الفراء، تصحيح: محمد حامد الفقي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤٢١هـ.
٢٧. أحمد فريد، السلفية قواعد وأصول، الناشر: دار العقيدة، القاهرة، ط ١، ١٤٢٤هـ.
٢٨. الأشعري، علي بن إسماعيل، الإبانة عن أصول الديانة، تحقيق: د. فؤاد حسين محمود، الناشر: دار الأنصار، القاهرة، ط ١، ١٣٩٧هـ.
٢٩. الأشعري، علي بن إسماعيل، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق: هلموت ريتز، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ٣.
٣٠. الألباني، محمد ناصر الدين، تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد، الناشر: المكتبة الإسلامية، بيروت، ط ٤.
٣١. الألباني، محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، ط ٥ - ١٤١٢ - ١٩٩٢م.
٣٢. البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، الأدب المفرد، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط ١، ١٤٠٦هـ.



٣٣. البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح) الناشر: دار الفكر - بيروت، طبعة عام ١٤٠١هـ.
٣٤. البوطي، محمد سعيد رمضان، السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، الناشر: دار الفكر - دمشق، ط١، ١٤٠٨هـ.
٣٥. التهانوي، محمد بن علي الفاروقي الحنفي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق: د. علي دحروج، الناشر: مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٩٦٦م.
٣٦. الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطا، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ.
٣٧. الحائري، كاظم، أصول الدين، الناشر: دار التفسير، ط٤، ١٤٢٤هـ.
٣٨. الخياط، عبد الرحيم بن عثمان، الانتصار، الناشر: الدار العربية للكتاب، ط٢، ١٤١٣هـ.
٣٩. الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد، سنن الدارمي، الناشر: مطبعة الاعتدال - دمشق، طبعة عام ١٣٤٩هـ.
٤٠. الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي الشافعي الطبرستاني، التفسير الكبير، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، ط١-١٤٢١هـ.
٤١. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، الناشر: دفتر نشر الكتاب، ط٢-١٤٠٤هـ.
٤٢. زين الدين، محمد أمين، كلمة التقوى، الناشر: مطبعة مهر، ط٣، ١٤١٩هـ.
٤٣. السبحاني، جعفر، الإلهيات، الناشر: الدار الإسلامية - بيروت، ط١٤٠٩هـ.
٤٤. السبحاني، جعفر، التوحيد والشرك في القرآن الكريم، الناشر: مؤسسة الإمام الصادق، ط١٤١٦هـ.
٤٥. السبحاني، جعفر، بحوث قرآنية في التوحيد والشرك، الناشر: مؤسسة الإمام الصادق، ط٣، ١٤٢٦هـ.
٤٦. السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي الشافعي، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: د. محمود محمد القناعي، د. عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: هجر للطباعة، ط٢-١٤١٣هـ.
٤٧. السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق: محمد علي النجار، أبو زيد شليبي، محمد أبو العيون، الناشر: دار الكتاب العربي، القاهرة. ط١، ١٣٦٧هـ.
٤٨. السبكي، تقي الدين علي بن عبد الكافي الشافعي، شفاء السقام في زيارة خير الأنام، تحقيق: محمد رضا الحسنی الجلالی، ط٤، ١٤١٩هـ.
٤٩. السقاف، حسن بن علي، صحيح شرح العقيدة الطحاوية، الناشر: دار الإمام النووي، الأردن، ط١، ١٤١٦هـ.
٥٠. السمعاني، أبو سعد، عبد الكريم بن محمد بن منصور، الأنساب، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، الناشر: دار الجنان - لبنان، ط١-١٤٠٨هـ.

٥١. السنند، محمد، الإمامة الإلهية، الناشر: منشورات الاجتهاد، قم، ط١، ١٤٢٧هـ.
٥٢. الشنيطي، محمد الأمين بن محمد بن المختار، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، الناشر: دار الفكر، ١٤١٥هـ.
٥٣. الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط١-١٤٢٣هـ.
٥٤. الصدوق، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، الاعتقادات في دين الإمامية، تحقيق: عصام عبد السيد، الناشر: دار المفيد - بيروت، ط٢-١٤١٤هـ.
٥٥. الصدوق، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، الخصال، تحقيق: علي أكبر الغفاري، الناشر: جماعة المدرّسين - قم، طبعة عام ١٤٠٣هـ.
٥٦. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك، عيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: الدكتور علي أبو زيد، د. نبيل أبو عظمة، د. محمد موعد، د. محمود سالم محمد، الناشر: دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق - سوريا، ط١، ١٤١٨هـ.
٥٧. الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، الناشر: جماعة المدرّسين - قم.
٥٨. الطبرسي، أبو علي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق وتعليق: لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت، ط١-١٤١٥هـ.
٥٩. الطبري، محمد بن جرير، تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، تقديم: الشيخ خليل الميس، الناشر: دار الفكر - بيروت، طبعة عام ١٤١٥هـ.
٦٠. عمارة، محمد، السلفية، الناشر: دار المعارف، تونس.
٦١. الغزالي، أبو حامد، الاقتصاد في الاعتقاد، الناشر: مكتبة محمود صبيح، القاهرة.
٦٢. الغزالي، أبو حامد، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، تعليق محمود بيجو، ط١، ١٤١٣هـ.
٦٣. غنام، حسين، تاريخ نجد، تحقيق: د. ناصر الدين الأسد، الناشر: دار الشروق، ط٤، ١٤١٥هـ.
٦٤. الفوزان، صالح، إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط٣.
٦٥. الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت.
٦٦. الفيومي، محمد بن علي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت.
٦٧. القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، تحقيق: عبد الكريم عثمان، الناشر: مكتبة وهبة.
٦٨. القضاعي، سلامة الشافعي، البراهين الساطعة في ردّ بعض البدع الشائعة، خالية من البيانات.
٦٩. القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي، تصحيح السيد طيب الموسوي، الناشر: مؤسسة دار الكتاب، قم، ط٣، ١٤٠٤هـ.
٧٠. كاشف الغطاء، جعفر، منحج الرشاد لمن أراد السداد، تحقيق: د. دودت القزويني.



٧١. الكليني، أبو جعفر، محمد بن يعقوب، الكافي، تعليق: علي أكبر الغفاري، الناشر: دار الكتب الإسلامية.
٧٢. اللالكائي، هبة الله بن الحسن بن منصور، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، تحقيق: د. أحمد سعد حمدان، الناشر: دار طيبة، الرياض، ١٤٠٢هـ.
٧٣. اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، فتاوى اللجنة الدائمة، جمع وترتيب: أحمد بن عبد الرزاق الدرويش، الناشر: موقع الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء السعودية.
٧٤. اللقاني، عبد السلام، اتحاف المرید بجوهرة التوحيد، الناشر: دار مكتبة الفلاح، حلب.
٧٥. المالكي، حسن بن فرحان، داعية وليس نبياً (قراءة نقدية لمذهب الشيخ محمد بن عبد الوهاب في التكفير) الناشر: دار الرازي، الأردن، ط١، ١٤٢٥هـ.
٧٦. مجلة البحوث الإسلامية، الناشر: موقع الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء، السعودية.
٧٧. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، تحقيق: يحيى العابدي الزنجاني، الناشر: مؤسسة الوفاء - بيروت، الطبعة الثانية المصححة - ١٤٠٣هـ.
٧٨. محمد العبد، طارق عبد الحليم، المعتزلة بين القديم والحديث، الناشر: دار الأرقم، ط١ - ١٤٠٨هـ.
٧٩. محمد رشيد رضا، الوهابيون والحجاز، الناشر: مطبعة المنار، مصر، ط١، ١٣٤٤هـ.
٨٠. محمد عبده، الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده، تحقيق د. محمد عمارة، الناشر: دار الشروق، ط١، ١٤١٤هـ.
٨١. محمد كامل ضاهر، الدعوة الوهابية وأثرها في الفكر الإسلامي الحديث، الناشر: دار السلام، ط١، ١٤١٤هـ.
٨٢. المسعري، محمد بن عبد الله، كتاب التوحيد (أصل الإسلام وحقبة التوحيد)، ط٨، ١٤٢٥هـ.
٨٣. المظفر، محمد رضا، عقائد الإمامية، تقديم: حامد حفي، الناشر: انتشارات أنصاريان - قم.
٨٤. المغربي، د. علي عبد الفتاح، الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ودراسة، الناشر: مكتبة وهبة، ط١٤٤٥هـ.
٨٥. المفيد، العكبري البغدادي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن نعمان، أوائل المقالات، الناشر: دار المفيد - بيروت، ط٢ - ١٤١٤هـ.
٨٦. المقرئ، أحمد بن علي بن عبد القادر، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (خطط المقرئ)، الناشر: مكتبة مدبولي، ط١٩٩٨م.
٨٧. النووي، أبو زكريا، يحيى بن شرف، المجموع (شرح المهذب)، الناشر: دار الفكر - بيروت.
٨٨. النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم (الجامع الصحيح)، الناشر: دار الفكر - بيروت.
٨٩. الهيثمي، ابن حجر، أحمد بن محمد بن علي المكي، الفتاوى الحديثية، الناشر: دار الفكر.